

الغزير بالله الفتاوى

دكتور على عيسى الخربوطي

مقدمة

هذه هى أول دراسة لسيرة علم من أبرز اعلام العرب ، وهو العزيز بالله سليل الأسرة الفاطمية المجيدة ، التى ينتهى نسبها الى السيدة فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى على ابن أبى طالب . والعزيز بالله ، هو خامس خلفاء الدولة الفاطمية ، وثانى الخلفاء الفاطميين بالقاهرة . وهو ابن الخليفة المعز لدين الله الذى نجح فى تحقيق الحلم الكبير الذى كان يحلم به الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأول ، وهو نقل الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر ، حتى ترث الدولة الفاطمية ممتلكات الدولة العباسية فى المشرق .

يجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله ، ويعتبرون عصره من أزهى العصور التى شهدتها مصر خاصة ، والعالم العربى عامة . وهم يمتدحونه فى أخلاقه ، وحكمته وسياسته ، وتسامحه ، ويعتبرون عهده هو أوج الدولة الفاطمية وذروة مجدها ويرون أنه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظماء . وكان اسم العزيز بالله يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد من الخليج العربى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، بل وفى بلاد العراق أحيانا ، وهى مركز الدولة العباسية . وأصبحت الخلافة الفاطمية فى مصر فى عهد العزيز بالله المنافس الخطير للخلافة العباسية المتداعية . وصارت الدولة الفاطمية أعظم الدول الإسلامية المعاصرة ، وموضع احترام وهيبة من جميع دول العالم فى الشرق وفى أوروبا - كما أصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية فى عهده .

اعتاد المؤرخون أن يبرزوا عصر المعز لدين الله ، ويسلطوا عليه كثيرا من الأضواء ، باعتباره القائم بمشروع فتح مصر ، ومؤسس مدينة القاهرة ، ومنشئ الجامع الأزهر . وهم في الحقيقة يجحدون فضل العزيز بالله . فالحقيقة التاريخية هي أن المعز لدين الله لم يحكم في مصر سوى عامين ، ثم توفي تاركا الدولة الفاطمية لابنه الخليفة العزيز بالله ليكمل ما بدأه أبوه . ومن البديهي أن القاهرة لم تكن في هذه السنوات القليلة قد اكتملت أو نمت ، فقام العزيز بالله باتمام مبانيها ، وعمل على تطورها ، حتى ظهرت القاهرة في أواخر عهده في صورتها الرائعة التي وصفها المؤرخون والرحالة الأقدمون . كما أن الخليفة المعز لدين الله قصر مهمة الجامع الأزهر على النواحي الدينية ، فعمل العزيز بالله على تطويره حتى أصبح جامعة علمية كبرى ، بمعنى الجامعة المعروف الآن ، وجعله معهدا عاليا للعلوم والفقه .

تطورت القاهرة في عهد العزيز بالله تطورا كبيرا ، فلم تكن القاهرة في عهد الخليفة المعز لدين الله سوى مكانا يقيم فيه الخليفة وحاشيته وجيشه . ثم أصبحت القاهرة في عهد العزيز بالله مدينة عامرة ، تحفل بالمساجد ودور العلم وبالسكان والبيوت والأسواق والمرافق والحدائق .

أصبح عصر العزيز بالله هو العصر الذهبي للدولة الفاطمية الذي بلغت فيه أوجها وذروتها . وأصبح لمصر في عهده طابع خاص يميزه عن العهود التي سبقتة ، وخاصة في العصرين الطولوني والأخشيدي . واتسعت رقعة الدولة في عهد العزيز بالله وفاقت في اتساعها وعظمتها ما كانت عليه في عصر أبيه المعز ، وساد الهدوء والسلام في أرجاء الدولة ، وتمتع أهل الدمة بالتسامح والطمأنينة ، وظهرت أبهة الخلافة وعظمتها ، وزاد ثراء الدولة الى درجة كبيرة ، وأمدنا المؤرخون الأقدمون بكثير من الصور والأمثلة لهذا الثراء والرخاء .

ويجمع المؤرخون على أن عصر العزيز بالله كان أكثر العصور

التاريخية في مصر تسامحا ، فقد أطلق الحرية في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، وسأوى في المعاملة بين العناصر المختلفة المقيمة في مصر وسائر أقاليم الدولة الفاطمية وعمل على حفظ التوازن بينها ، فعاشت جميعها في مجتمع واحد قوى متماسك . واستقرت الأحوال الداخلية تماما في الدولة الفاطمية طوال عصره فلم تقم فتن أو ثورات .

وأضفى المؤرخون القدماء على العزيز بالله كثيرا من الصفات الشخصية الحميدة ، فقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير ، وحب العلم والأدب ، فكان يجيد عدة لغات ويشجع العلماء والأدباء ، كما كان شاعرا مجيدا ، وأصبح عهده عصر نهضة أدبية وعلمية وفنية . وتميز العزيز بالله بالتسامح والعفو والكرم والشجاعة والاقدام وبالتقوى والورع .

ورغم هذه الصور المجيدة الباهرة التي شهدناها في هذه المقدمة الموجزة فلم يظهر بعد كتاب يدرس سيرة العزيز بالله ، ولذا رأينا أن نفى لهذا العلم العربى بحقه علينا ، نحن العرب ، فتكون سيرته حلقة في سلسلة تراجم غيره من أعلام العرب البارزين . والله ولى التوفيق ؟

دكتور على حسنى الخربوطلى
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد
بجامعة عين شمس

فجر حياة الغزير باسمه في المغرب

كانت الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي الى البيت الهاشمي دون تخصيص ولذا تعاون العلويون والعباسيون ، وكلهم هاشميون ، للقضاء على غدوهم المشترك للدولة الأموية . ولكن العباسيين بعد فوزهم استبدوا بالسلطة دون العلويين ، ولذا بدأت مرحلة جديدة من صراع العلويين والعباسيين .

وفي العصر العباسي ، ظهر زعماء علويون بدأوا يحاولون انتزاع الخلافة من أبناء عموماتهم ، فكان أولهم جعفر الصادق ، حفيد الحسين بن علي ، ونادى بانحصار الخلافة في أولاد الحسين دون الحسن . وتعرف هذه الطائفة باسم (الامامية) وقد انقسمت هذه الطائفة بعد وفاة جعفر الصادق الى طائفتين . الأولى الأمامية الموسوية وهم الذين قالوا بأمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ويعتبرونه الامام السابع .

والطائفة الثانية الامامية الاسماعيلية ، ونادوا بأمامة اسماعيل ابن جعفر الصادق باعتباره أكبر أولاده . وكان اسماعيل قد خلعه أبوه من الامامة وعين بدله موسى الكاظم ولكن الشيعة لم تعترف بما فعله جعفر الصادق . ولما توفي اسماعيل في حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ رأى أتباعه أن الامامة يجب أن تنقل بعد وفاة جعفر الصادق الى حفيده محمد بن اسماعيل طبقا لتعاليمهم التي تنص على أن الامامة لا تنقل من أخ الى أخ بل تكون في الاعقاب ، وأصبح محمد هذا الامام السابع وأطلق على هذه الطائفة (السبعية) لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية .

كان الامام الثانى عشر من اعقاب موسى الكاظم هو محمد المنتظر ابن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم ، ودخل محمد هذا سردابا فى مدينة سامراء سنة ٢٦٠ هـ ولم يعد ، وانتظر انصاره عودته ونادوا بأنه سيعود ليملأ الدنيا عدلا .

الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب :

تطورت الدعوة الشيعية تطورا سريعا ، وكان قيام الدولة الفاطمية النتيجة المباشرة الرئيسية لهذا التطور . فقد اتخذت الدعوة العلوية فى عصر الدولة العباسية شكلا سريا ، لينجو العلويون من اضطهاد العباسيين لهم ، وقالت طائفة الامامية بجواز استتار الامام اذا لم تكن له قوة يتغلب بها على اعدائه .

فى عهد الخليفة المأمون ، تتبع العباسيون الامام عبد الله الرضى ، فاضطر الى الهرب مع ابنه وولى عهده أحمد فتجول فى عدة بلاد حتى استقر فى قرية سلمية قرب حمص بالشام . وأصبحت هذه القرية مركز الدعوة الشيعية . واتخذ عبد الله الرضى ثم ابنه من بعده داعية يدعى ميمون القداح . وفى عهد الامام الحسين بن على اتسعت الدعوة الاسماعيليه فى الأقطار الاسلامية . نتيجة بذل الامام الأموال ، واهتمامه بتنظيم الدعوة وبث الدعاة .

وكان أشهر الدعاة ببلاد اليمن هو ابن حوشب الذى بنى حصنا جنوبى صنعاء وزحف منه على رأس جيش تمكن به من السيطرة على أجزاء كثيرة من بلاد اليمن . وبعث ابن حوشب دعائه الى اليمامة والبحرين والهند والسند ومصر والمغرب . وكان مبعوثاه الى المغرب أبا سفيان والحلوانى .

اختار الامام الحسين أحد دعائه الممتازين لينشر الدعوة الاسماعيليه فى المغرب ، وهو أبو عبد الله الشيعى ، وبعثه الى ابن حوشب باليمن لتدريبه سنة ٢٧٨ هـ ولما علم ابن حوشب بوفاة

أبى سفيان والحلوانى بالمغرب ، أمر أبا عبد الله الشيعى أن يكمل ما بدأه الداعيان ، وقال له : ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطاة ممهدة لك (١) .

خرج ابو عبد الله الشيعى من اليمن الى مكة زمن الحج ، والتقى بحجاج كتامة وامتزج بهم واكتسب صداقتهم ، وطلب أن يرافقهم فى طريق عودتهم الى بلاد المغرب زاعما أنه يريد مصر لطلب العلم ، واستطاع الكتاميون أن يقنعوا أبا عبد الله أن يصحبهم الى المغرب ، وهو ما كان يريد فعله أبو عبد الله ، الذى أصبح المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية .

وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد الامام ادريس ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، الذى فر من أيدى العباسيين فى موقعة فخ فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ . وأقام الأدارسة فى المغرب الأقصى دولة شيعية سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الاسماعيلية مما مهد الطريق أمام الدولة الفاطمية .

ولما قدم أبو عبد الله الشيعى الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة له كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ونفوسهم ، واعتنقه كثير من وزراء الأغلبة الذين قامت دولتهم فى افريقية (تونس) على يد ابراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ . (٨٠٠ م) وظلت قائمة الى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ (٢) .

أعلن أبو عبد الله الشيعى لأهل كتامة غرضه الأسمى ، وأنه يكمل ما بدأه أبو سفيان والحلوانى ، وأنه البشير بالمهدى ، فالتفوا حوله

(١) المقرئى : اتعاط الحنفا ص ٧٥ .

(٢) جمال سرور : مصر فى الدولة الفاطمية ص ٩ .

وأيدوه ، واستطاع بتأييدهم أن يستولى على عدة مدن بالمغرب ، وساعده على ذلك ضعف دولة الأغالبة ومساعدة الوزراء الأغالبة للدعاة الشيعة ، ونجح أبو عبيد الله أخيرا في القضاء على دولة الأغالبة تماما ، مما ساعد على قيام الدولة الفاطمية .

قيام الدولة الفاطمية في المغرب :

أصبح الشيعة سنة ٢٩١ هـ لهم السلطة الحقيقية في بلاد المغرب غرب مدينة القيروان وازداد انتشار الدعوة الفاطمية يوما بعد يوم ، وانشطت الدولة العباسية بمشاكلها الداخلية عن مقاومة هذه الدعوة الشيعة . ورأى أبو عبد الله المهدى بعد نجاحه الواسع أن الظروف قد حانت لقدم عبيد الله المهدى من قرية سلمية بالشام الى بلاد المغرب . واستجاب المهدى لدعوته وبدأ خروجه الى شمال افريقية . وعلم الخليفة العباسي بخروجه ، فأمر ولاته حيث كانوا بالقبض عليه ، ولكن المهدى نجح في الهرب من الشام ثم من مصر . ويتهم المؤرخون والى مصر محمد بن سليمان الكاتب بالإهمال في القبض على المهدى ولذا عزله الخليفة . ونجح المهدى في الفرار من القسطنطينية الى زى التجار الى طرابلس ، حيث هجمت عصابة من البربر على قافلته فنهبوها ، ولكن المهدى نجا بحياته وخرج الى المغرب .

ونجح العباسيون أخيرا في القبض على المهدى في سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ .

لم يحل سجن المهدى دون بذل أبي عبد الله الشيعي جهوده في سبيل ارساء قواعد الدولة الفاطمية ، فقد استمر يعمل للسيطرة على مدن المغرب واحدة بعد أخرى ، وقطع الخطبة للخليفة العباسي في القيروان عاصمة افريقية ، وضرب عملة جديدة وألفى العملة العباسية . فكان بذلك يقضى على كل معالم السيادة العباسية .

وتوج أبو عبد الله نصره بأن قاد جيشا كبيرا أطلق سراح المهدي من سجنه بالقوة وأسرع الوالى العباسى بالفرار (١) .

غادر عبيد الله المهدي السجن ليتلقى البيعة في سجلماسة ثلاثة أيام ، ثم غادرها في طريقه الى القيروان فوصل الى رقادة حيث استقبل استقبالا حافلا . ثم استقر بالقيروان واتخذها عاصمته في ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ ، وتلقب المهدي بأمر المؤمنين وخطب له على منابر بلاد المغرب جميعا ، وأقبل الناس على اعتناق مذهب الاسماعيلية ، الذي أصبح مذهب الدولة الفاطمية وولى المهدي ولاته على مدن المغرب ، ونظم الدواوين والضرائب . وبدأ قيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، التي أصبح رجلنا الخليفة العزيز بالله خامس خلفائها .

المهدي الجد الأكبر للعزيز بالله :

بدأ عبيد الله المهدي في تدعيم أسس الدولة الفاطمية ، فعزل الولاة الكتاميين ، واستعان بآخرين ممن يوليهام ثقته . مثل حباسة ابن يوسف الذي ولاه المغرب الأدنى ، وعروبة بن يوسف الذي ولاه المغرب الأوسط والأقصى . كما أخضع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى كما عمل على القضاء على دولة الأدارسة وكانت تنافس الدولة الفاطمية ، ونجح أخيرا في القضاء عليها تماما . كما قضى على الثائر موسى بن أبي العافية الذي أعلن ولاءه لعبد الرحمن الناصر أمير الدولة الأموية في بلاد الأندلس . وقد أصبحت الدولة الفاطمية الشيعية منافسة خطيرة للدولة الأموية السنية بالأندلس .

وبعد نجاح المهدي في القضاء على أعدائه ومنافسيه ، بدأ في إقامة حاضرة جديدة في مكان متوسط من بلاد المغرب وأراد أن تكون على شكل حصن ليحتمى به هو وأعوانه ، ولتكون هذه الحاضرة

(١) المقرئى : اعطاء الحنفا ص ٨٨ - ٨٩ .

مقرا للدعوة الاسماعيلية ، وعاصمة للدولة الناشئة . فاختار المهدي مكانا في جنوب القيروان يحيط به البحر من ثلاث جهات ، وأطلق على حضرته الجديدة اسم (المهدي) حتى اذ فرغ من تشييدها ، أقام الى جوارها مدينة (زويلة) نسبة الى احدى قبائل بلاد المغرب ليقيم فيها أصحاب الحوانيت وأسرههم .

حاول عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) التوسع شرقا وغربا . أما نحو الشرق ، فقد حاول فتح مصر ثلاث مرات (٣٠١ هـ ، ٣٠٧ هـ ، ٣٢١ هـ) دون جدوى . أما في المغرب فقد قضى المهدي على دولة الأدارسة ثم اصطدم بالدولة الأموية في الأندلس . وامتد نفوذ الدولة الفاطمية في جميع أرجاء شمال أفريقية ، بل هدد الفاطميون جنوب إيطاليا .

وانشغل المهدي عن متابعة محاولة فتح مصر بمشاكله الداخلية اذ ثار والياه حباسة وعروبة ابني يوسف وساءت العلاقات بين الفاطميين والأمويين لسماحهم بالتجاء الهاربين من الفاطميين ، كما أن عبد الرحمن الناصر الأمير الأموي بالأندلس شعر بالفيرة من المهدي الخليفة الفاطمي ، فتلقب هو أيضا بلقب خليفة . ومن عوامل العداء الاختلاف في المذهب فكان الفاطميون شيعة ، بينما كان الأمويون سنيين ، الى جانب العداء التقليدي المتوارث بين بني هاشم وبني أمية .

أجداد العزيز بالله :

بعد وفاة المهدي ، خلفه ابنه أبو القاسم أحمد الذي اتخذ لقب (القائم بأمر الله) وقد أخفى نبأ وفاة أبيه حتى أخذ بعض الثورات التي قامت واشدها ثورة أهل زناتة . وفي عهد القائم برزت قبيلة صنهاجة . واحتلت مكانة قبيلة زناتة . وما لبث أن ظهر خطر جديد ، هو ثورة الخوارج بزعماء أبي يزيد مخلد كيداد الذي أغار على المهديّة ، فهرب أهلها الى طرابلس وصقلية ومصر ، بل الى

الدولة البيزنطية ، واستنجد الخليفة بقبيلة صنهاجة ونجحوا في القضاء على كيداد وسجنه ، ومات القائم في خلال هذه الظروف .

ثم تولى الخليفة المنصور ، فانصرف اهتمامه الى تنمية موارد البلاد واعادة الأمن والهدوء بعد تلك الفترة الطويلة التي حفلت بالفتن والاضطرابات وانشأ أسطولا كبيرا ، كما أسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧ هـ ، واتخذها عاصمة له . ولا شك ان انشغاله في اصلاح ما أفسدته الثورات شغله عن فتح مصر . فترك هذه المهمة الكبرى لابنه وخلفه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي والد رجلنا العزيز بالله .

مولد العزيز بالله في المهديّة بالمغرب :

رزق الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (واسمه الأصلي معد أبو تميم) بغلام في سنة ٣٤٤ هـ ، سماه نزارا ، وأصبحت كنيته فيما بعد (أبو منصور) حتى اذا تولى الخلافة أصبح لقبه (العزيز بالله) .

كان مولد العزيز بالله في مدينة المهديّة ، وهي العاصمة الفاطمية الأولى التي أنشأها جده الأكبر ، مؤسس الدولة الفاطمية ، عبيد الله المهدي ، وكان المهدي في أول عهده قد اتخذ القيروان عاصمة له ، حتى ثارت عليه قبيلة كتامة عندما أقدم على قتل أبي عبيد الله الشيعي خشية ازدياد نفوذه ، فخرج المهدي الى تونس يبحث عن مكان جديد يصلح لعاصمة كبرى للدولة الفاطمية الوليدة تتوفر فيه الحصانة والحماية ، حتى يعتصم بهذه العاصمة الحصينة اذا قامت في وجهه ثورة ما . واختار المهدي هذا المكان على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان ، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات وأصبح مدخلها في الجانب الغربى ، وشاد المهدي مبانيها من الصخر ، واتخذ للمدينة بابين من الحديد ، لا خشب فيهما وكان كل باب يزن ألف قنطار ، وأقام المهدي بالعاصمة الجديدة دارا

للصناعة تسع حوالى مائتى مركب ، وجعل فيها سسوقا لكل مهنة (١) .

وتطورت مدينة المهديّة سريعا ، واصبحت ابرز موانى بلاد المغرب ، وشعر المهدي في عاصمته الجديدة بالامان والاطمئنان فقال : « اليوم امنت على الفاطميات » . ثم أمر المهدي ببناء مدينة أخرى الى جانب المهديّة ، سماها زويلة نسبة الى احدى قبائل البربر ، وجعل بين المدينتين ميدانا فسيحا .

وظلت مدينة المهديّة حاضرة للدولة الفاطمية حتى ثار أبو يزيد ابن كيداد على الخليفة الفاطمي القائم ، ونجح ابنه المنصور بعد توليه الخلافة في اخماد الثورة فاتخذ مدينة (صيرة) القريبة من القيروان عاصمة للدولة الفاطمية سنة ٣٣٧ هـ ، وأطلق عليها اسم (المنصورية) ونقل اليها أسواق مدينة القيروان فازدهرت بها الصناعة والتجارة (٢) .

العزير بالله في قصر المعز بالمغرب :

اهتم الخليفة المعز لدين الله بأن يثقف ابنه نزارا ، فيعده اعدادا سياسيا وعلميا حتى يكون جديرا بأن يكون خامس خلفاء الدولة الفاطمية ، فهو ينتسب الى أكرم أسرة في العالم الاسلامي . وهم جميعا يتسمون باسم السيدة فاطمة بنت الرسول رضى الله عنها .

وكان المعز لدين الله على درجة كبيرة من الثقافة والعلم ، فهو يجيد عدة لغات منها اللغة التليانية التي تعلمها في صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقلبية التي كانت منتشرة في هذه الجزيرة ، كما كان ملما باللغة السودانية ، وحرص المعز على تحصيل العلوم والآداب المختلفة واشتهر بالدراية بالسياسة والادارة ، وكان من

(١) البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٩ - ٣١ .

(٢) انظر (المنصورية) في معجم البلدان لياقوت .

أرشد الخلفاء الفاطميين ، مما هيباً له الفرص لتدعيم الدولة الفاطمية والسيطرة على جميع قبائل المغرب .

وأصبح الخليفة المعز مثالا للتقوى والورع ، والمثل الأعلى للخليفة الصالح ، لم يغيره الملك ولا الجاه ، ولم يعيث كما كان بعض الخلفاء الأمويين في المشرق والمغرب يعثون ، ولا كما كان بعض خلفاء العباسيين في العصر العباسي الثاني ووزراؤهم وأمرائهم يفعلون . فلم يعرف عنه أنه شرب الخمر ، أو خالف أوامر الدين ونواهيه ، بل كان المثل الأعلى للحاكم الذي يحافظ على أوامر الشرع ، يقضى سبحانه يومه في النظر في شئون الرعية والحكم بما أنزل الله وأتى به الرسول ، أو في الاطلاع والبحث والدرس ، أو في تأليف الكتب والمقالات الى الدعاة والعمال والأمراء (١) .

وحرص المعز على توفير أسباب الرقي والرفاهية لرعاياه ، والعناية بشئون الدولة وكان يقول : « والله لقد كفينا كثيرا ممن اختصصناه منهم من أوليائنا وعبيدنا أمر دنياهم ، وأطعمناهم مما نأكل وكسوناهم مما نلبس ، وشاركناهم فيما نملك . وإنهم لياكلون من ذلك ، ويلبسون ويملكون ما لا تعب ولا نصب ولا كلفة عليهم فيه ، وأنا لنتعب وننصب ونتكلف ذلك لهم ، فهم على ذلك أخفض عيشا منا فيه ، وأقل تعباً واهتماماً به » (٢) .

نجح المعز في أول عهده في القضاء على بقايا دولة الأدارسة التي حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين ، كما نجح في القضاء على روح الثورة تماما ، مما أتاح له الفرصة للتفرغ للفتوحات الخارجية فاهتم بجزيرة صقلية ، وكانت تخضع قبل قيام الدولة الفاطمية لدولة الأغابة ، وكانت الدولة الفاطمية تعمل على انشاء امبراطورية كبرى في البحر المتوسط وتريد أن تجعل صقلية قاعدة الاسطول

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٧٦ .

(٢) النعمان : المجالس والمسائرات ج ٢ ص ٢٠١ .

الفاطمي لتأمين شر غارات الروم على سواحل افريقية ، ولتحقيق
أطماع الفاطميين في فتح مصر .

ولذا اهتم الفاطميون بتحقيق السيادة الفاطمية في حوض
البحر المتوسط فأنشأوا الموانئ البحرية ، وأسسوا مدينة المهدية
وجعلوها قاعدة للأسطول الفاطمي وسيطر الفاطميون على جزيرة
كورسيكا وأغاروا على جنوه وسردينه وأصبح البحر المتوسط بحيرة
فاطمية . ثم بدأ المعز يتفرغ لفتح مصر .

هذه هي البيئة التي نشأ فيها المعز بالله . قصر يحفل بالعلماء
والأدباء واب يقبل على التزود بالعلم والثقافة ، ويحرص على
اتقان اللغات الأجنبية ويسخر كل وقته وجهده لتدعيم دولته
من الداخل ، واتساع نفوذ الفاطميين في الخارج وكان المعز يعد ابنه
العزیز ليساعده في تنفيذ مخطمحه ومشاريعه الواسعة ولیمضی في
نفس الطريق اذا تولى الخلافة من بعده .

احتفل الخليفة المعز لدين الله بختان ابنه العزيز (نزار) وأخويه
عبد الله وعقيل في سنة ٣٥١ هـ ، في حفل بهيج لم تشهده الدولة
الفاطمية من قبل ورأى أن يشرك رعيته في هذا الاحتفال ، فحتم
أن يقدم الأهلى أبناءهم الصغار ليختتنوا ، يأخذوا من مال الدولة ،
مقابل ذلك قدرا من المال وبعث المعز الى ولاته في سائر المدن ،
يأمرهم بمثل ما أمر به أهالى المنصورية . وتدفقت الأموال من
مدينة المنصورية ، العاصمة الفاطمية في تلك الفترة الى الولايات
المختلفة ليقوم الولاة بدفع النفقات والهدايا والمنح لأبناء الصغار
المختتنين واذا علمنا أن المعز كان يعطى كلا من هؤلاء الأطفال
كسوة حسنة بعد اختتانه ، ويمنحه مبلغا من المال يتراوح بين
مائة وخمسين درهما ومائتى درهم اتضح لنا مقدار الأموال التي
بذلها المعز في عاصمته وفي سائر الولايات .

ومما يدل على كثرة الأموال التي أنفقها المعز في هذه الاحتفالات

الشعبية البهيجة التي اقامها بمناسبة ختان العزيز وأخويه ، ان المعز أرسل الى صقلية وحدها خمسين حملا من المال في كل حمل عشرة آلاف دينار ، أى ان ما أنفق في صقلية من الأموال - غير الكساء - بلغ أكثر من نصف مليون دينار واذا علمنا ان هذا الختان قد تم في سنة ٣٥١ هـ - أى بعد انضواء جميع بلاد المغرب تحت لوائه ، وانه أنفق على ختان أبناء رعاياه في جميع البلاد : المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وأن عدد من اختتن في المنصورية لا يقل عن ربع مليون كما تقدم ، لأدركنا المبالغ الطائلة التي أنفقها المعز لدين الله في سبيل ذلك .

وهذا يدل على ثراء الدولة الفاطمية العظيم كما يدل على جود المعز ورغبته في اسعاد شعبه وكان المعز عطوفا على رعاياه ، يشفق على فقرائهم ويساعدهم على تزويج أبنائهم وكثيرا ما كان يبنى الدور للفقراء منهم . واذا وازنا بين علاقة الفاطميين والعباسيين برعاياهم وجدنا أن رعايا الفاطميين كانوا أكثر التفافا حول خلفائهم من رعايا العباسيين . ويرجع ذلك الى ضعف الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الثاني ، وهو عصر نفوذ الأتراك (١) .

(١) المعز لدين الله ص ٢٧٦ .

قدوم العزيز بالله إلى مصر

نشأ العزيز بالله في بلاد المغرب ، حيث قضى صباه وشبابه المبكر ثم بدأ يشارك أباه المعز الدين الله في أعباء الدولة ومهامها . وكان يشغل المعز منذ تولي الخلافة أن ينجح فيما أخفق فيه آباؤه وأجداده وهو فتح مصر ، كخطوة أولى لـذا النفوذ الفاطمي إلى بلاد الشام والجزيرة العربية ، ولترث الدولة الفاطمية أراضي الدولة العباسية التي كانت تعاني الضعف والاضمحلال . وعاش العزيز خلال هذه الظروف ، وشارك في مشروع فتح مصر منذ مولد المشروع حتى تحقق له النجاح . وخرج العزيز بالله مع أبيه الخليفة المعز إلى مصر ، وودع بلاد المغرب ، حيث ولد ونشأ ، الوداع الأخير ، ثم استقر في مصر مع أبيه ، وما لبث بعد عامين أن تولي الخلافة الفاطمية ، وأصبحت الدولة الفاطمية في عهده امبراطورية كبرى وشهد العالم الاسلامي في خلافته أوج هذه الدولة وذروة مجدها .

أسباب الفتح الفاطمي لمصر :

اختار الفاطميون بلاد المغرب ليقموا فيها الدولة الفاطمية دون غيرها لأن هذه البلاد بعيدة تماما عن مركز الدولة العباسية في العراق مما يوفر الفرصة للفاطميين للعمل الإيجابي بعيدا عن السلطة المركزية في الخلافة العباسية ولكن الفاطميين كانوا يتمنون قيام دولتهم في قطر يتوسط العالم العربي الاسلامي في ذلك الحين ، مثل مصر ، إذ أن مصر تقع في مكان يتوسط القارتين الأفريقية والآسيوية حيث يعيش العرب والمسلمون وكان المصريون أكثر استجابة للحضارة العربية من بربر شمال افريقية .

وكان الفاطميون يحلمون بإقامة خلافة علوية في مصر وكانوا يدركون أن وجودهم في مصر يمكنهم من التوسع شمالا وشرقا وغربا . فقد كان حكام مصر دائما يسيطرون على بلاد الشام ، فيقترب الفاطميون بذلك من العراق قلب الدولة العباسية ، كما يسيطر الفاطميون على بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفان ، فيصبحون حماة الأماكن المقدسة ، ويصبح الفاطميون أصحاب السلطة في أكبر العواصم الإسلامية ، القسطنطين ودمشق ومكة والمدينة . ومن مصر يتمكن الفاطميون من التوسع غربا في برقة وبلاد المغرب . كما أن مصر مفتاح البحر المتوسط ، وقد كان الفاطميون يطمحون إلى السيطرة على حوض هذا البحر ، إلى جانب ما تتصف به مصر من حضارة وثراء ورخاء وهدوء (١) .

ولذا نرى الفاطميين منذ اللحظة الأولى لقيام الدولة الفاطمية يعملون على فتح مصر ، وتكررت محاولتهم دون يأس أو عدول . فكانت المحاولة الأولى سنة ٣٠١ هـ ، فقد بعث الخليفة الفاطمي الأول المهدي جيشا نجح في فتح برقة ثم الاسكندرية ، وحاولوا فتح الوجه القبلي ، ولكن الخليفة العباسي المقتدر بعث جيشا كبيرا نجح في هزيمة الجيش الفاطمي قرب الجيزة واضطر الفاطميون إلى الانسحاب إلى بلاد المغرب . ولكن هذه المحاولة الفاشلة بذرت في مصر بذور الدعوة الفاطمية الشيعية .

وفي سنة ٣٠٧ هـ بعث المهدي جيشا آخر نجح في فتح الاسكندرية ثم الجيزة والفيوم ، ولكن الخليفة العباسي عاود إرسال جيشه ونجح أيضا في هزيمة الفاطميين ، كما أحرق السفن الفاطمية وانتهت المحاولة الثانية بالاخفاق (٢) .

ثم بدأت المحاولة الثالثة سنة ٣٢١ هـ ، ودارت معارك عنيفة

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الإسلامية) ص ١١٣ .

(٢) انماط الحنفا ص ١٠٤ .

طويلة استمرت ثلاث سنوات الى سنة ٣٢٤ هـ وأوقع الأخشيدي الهزيمة بالفاطميين فانسحبوا الى بلاد المغرب . وحينما تولى القائم الخلافة بعد أبيه المهدي بعث بجيش أواخر سنة ٣٢٣ هـ انضم اليه بعض المصريين نتيجة انتشار الدعاية الفاطمية بينهم ، ولكن الأخشيدي نجح في صد الجيش الفاطمي فعاد الى المغرب (١) .

لجأ الخليفة القائم الى الوسائل السلمية فبعث الى الأخشيدي برسالة ينشد فيها صداقته ومودته . ولكن الأخشيدي ماطل وسوف ، فقد كان يخشى من اغصاب الخليفة العباسي ، كما أدرك مطامع الخليفة الفاطمي . حتى اذا ساءت العلاقات بين الأخشيدي والخليفة العباسي الراضي ، قطع الخطبة له وذكر اسم الخليفة الفاطمي القائم ، وعرض عليه زواج ابنته من المنصور بن القائم ، ولكن المشروع أخفق .

لم يقيم الخليفة الفاطمي المنصور بمحاولة أخرى لفتح مصر . فقد انشغل باخماد الثورات والفتن ، واعادة الهدوء والاستقرار ، واصلاح ما أفسدته الثورات حتى اذا تولى الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ هـ) عاد مشروع فتح مصر الى الوجود .

العزیز بالله یشارك فی الاستعدادات لفتح مصر :

بدأ الخليفة المعز لدين الله يضع مشروعه لفتح مصر موضع التنفيذ . فأخذ يستعد للفتح باستعدادات كبيرة تهییء للمشروع فرص النجاح . بحيث لا يتعرض الفتح للعقبات والمصاعب التي صادفت المحاولات السابقة للفتح فی عهد آبائه . ووقف العزیز الى جانب أبيه فی كل خطوة خطاها .

وكرس المعز كل وقته وجهده للاستعدادات لفتح مصر . فقد اعتبر هذا المشروع مسألة حياة أو موت بالنسبة للدولة الفاطمية

(١) الكندی : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

فأنشأ الطرق وحفر الآبار وأقام الاستراحات على طول هذه الطرق .
وجمع أموالا كثيرة تكفى للانفاق على المشروع .

وجمع المعز لدين الله شيوخ قبيلته كتامة ، في ليلة باردة عاصفة
وجلس يحدثهم عن مشروعه ويهيبهم عقولهم ونفوسهم ليكونوا معه
في تنفيذ مشروعه الكبير . وجلس العزيز الى جانب أبيه يستمع
الى حديثه لهؤلاء الشيوخ ووقفت زوجة المعز (أم الأمراء) من
وراء حجاب تستمع الى ما يدور في هذا المجلس من احاديث . فقد
شفلت الأسرة كلها اذهانها وتفكيرها بهذا المشروع العظيم .

بدأ الخليفة المعز حديثه مع شيوخ كتامة بأن أوضح لهم انه
يكرس كل وقته وجهده لتحقيق مشروع فتح مصر . فقال :
« أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء وانها
الآن بحيث تسمع كلامي ، أترى اخواننا يظنون أنا في مثل هذا
اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب في الثقل والديباج والحريير والغنك
والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت
ان انفذ اليكم فأحضركم لتشاهدوا حالي اذا خلوت دونكم واحتجبت
عنكم واني لا أفضلكم في أحوالكم الا فيما لا بد لي منه من دنياكم ،
وبما خصني الله به من امامتكم واني مشغول بكتب ترد على من
المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي ، واني لا أشتغل بشيء من ملاذ
الدنيا الا بما صان ارواحكم وعمر بلادكم ، واذل أعداءكم وقمع
أضدادكم » .

ثم اتجه المعز الى شيوخ قبيلة كتامة بالنصيحة ، فطلب منهم
ان يحذوا حذوه ، ويسيروا على نهجه في معاملة الرعايا معاملة طيبة
كريمة فقال : « فافعلوا يا شيوخ في خلوتكم مثل ما أفضله ولا تظهروا
التكبر والتجبر ، فينزاع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم . وتحننوا
على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحنني عليكم ، ليتصل في
الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل » وقد كانت هذه
العبارات منذ توجه بها المعز الى هؤلاء الشيوخ درسا نافعا استفاد

منه ولى عهده وابنه العزيز بالله . الذى أصبح أكثر الخلفاء
الفاطميين عدلا وتسامحا واهتماما برعاياه .

ثم اتجه المعز بالنصيحة وجهة أخرى ، فقد نصح شيوخ
كتامة بأن يحدوا عن تعدد الزوجات وأشار عليهم بالزهد
والتقشف ، حتى تقوى أرواحهم وأبدانهم وتصبح فى خدمة
مشروع فتح مصر . فقال المعز « .. واقبلوا بعدها على نساتكم ،
والزمو الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكاثر منهن
والرغبة فيهن . فيتنفص عيشكم وتعود المضرة عليكم . وتنهكوا
أبدانكم وتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم ، فحسب الرجل الواحد
الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بأيديكم وعقولكم . واعلموا
أنكم اذا لزمتم ما أمركم به رجوت أن يقرب علينا أمر المشرق ،
كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم » (١) .

المعز والعزيز فى وداع جوهر :

خرج الخليفة المعز وولى عهده العزيز بالله لوداع القائد الباسل
جوهر الصقلى وجيشه . فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى
سنة ٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م) وتقدم جوهر نحو الخليفة ،
فقبل يد الخليفة وحافر فرسه ، وأذن له المعز بالمسير حتى اذا عاد
المعز الى قصره بعث الى جوهر كل ما كان عليه من ثياب .

أنفق المعز على هذا الجيش أموالا كثيرة زادت على أربعة
وعشرين مليون دينار وصحبت الحملة قافلة من الإبل تزيد على
الآلاف تحمل صناديق من الذهب للانفاق منها على الجيش . وزاد
عدد الجند على مائة ألف جندي مما جعل أحد المصريين يصف
كثافة هذا الجيش بهذه العبارة « مثل جمع عرفات كثرة وعدة » (٢)
ووصف شاعر المعز ابن هانىء الأندلسى الجيش فقال :

(١) المقرئى : انماط الحنفا ص ٦١ .

(٢) انماط الحنفا ص ٧١ .

رأيت بعيني فوق كنت أسمع
وقد راغنى يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سـد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث نطلع

وصحب الجيش أسطول فاطمي يتألف من كثير من السفن
البحرية ، وتقدم الجيش شرقا نحو مصر في نفس الطريق الذي
اتخذه كل غزاة مصر الذين غزوها من الغرب . وانضم الى الجيش
عدد كبير من رجال كتامة الذين اشتهروا بالشجاعة والاقدام .

الفتح الفاطمي لمصر :

كانت ظروف مصر الداخلية مهيئة للفتح الفاطمي ، فعلى الرغم
من اخفاق المحاولات السابقة التي قام بها الفاطميون لفتح مصر ،
فقد كان من بين المصريين من يتمنى استيلاء الفاطميين على مصر .
وانتشر المذهب الفاطمي الشيعي في معظم مدن مصر وكان بعض
الأخشيديين يسمحون بالدعوة الفاطمية ويشجعونها ، وخاصة بعد
النزاع العنيف بين الاخشيديين والدولة العباسية ، والذي نتج عنه
قطع الخطبة للخليفة العباسي والدعاء للخليفة الفاطمي . ثم انتشرت
القوضى في مصر بعد وفاة كافور الاخشيدي ، وأدرك الفاطميون
ان الوقت قد حان لفتح مصر ، وخاصة أن الأحوال الداخلية في بغداد
تحول دون الخليفة العباسي وارسال الجيوش لصد الفاطميين .

خرج جوهر الصقلي على رأس الجيش الفاطمي في ١٤ ربيع
الثاني سنة ٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩) لفتح مصر ، وخطب المعز
في جنده خطبة مسهبة شرح فيها هدفه من الفتح . وهو نشر
نفوذه الديني والسياسي في المشرق وان سياسته تقوم على قاعدة
« العدل أساس الملك » وأنه يرمى الى تعمير البلاد ونصح للجند
الكتاميين بالطاعة والاخلاص ليتم لهم فتح المشرق كما سهل أمر

المغرب عليهم (١) . وخرج مع الجيش عدد من السفن الفاطمية وبلغ ما أنفق المعز على الجيش والأسطول أربعة وعشرين مليون دينار .

وصل جوهر الصقلى الى الاسكندرية فأصيب أهل القسطنطينية بالذعر ، وبعثوا الوزير جعفر بن الفرات ليفاوض «جوهر» فى الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم . واختار ابن الفرات مندوبا عنه ينسب الى الحسين بن على يسمى أبو جعفر ليسهل التفاهم مع الفاطميين وقابل هذا الوفد جوهر الصقلى ، وأجابهم جوهر الى رجائهم ، وكتب لهم عهدا ، وعد فيه أن يطلق فيه الحرية الدينية والمذهبية لجميع المصريين ، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من اصلاحات كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة وحماية مصر من المغيرين .

وفى ٧ شعبان عاد الوفد الى القسطنطينية وقرا ابن الفرات العهد الذى منحه جوهر وتجادل الناس حوله ، واختلفوا فى قبوله ثم اتفقت كلمتهم على رفض الصلح وأصر الاخشيديون والكافوريون على المقاومة وهرع أهالى القسطنطينية يطلبون من الشريف أبى جعفر أن يكتب «جوهر» ليعيد عهد الأمان ، فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد وقبل جوهر التماسهم وأذاع على جندهم منشورا يحرم فيه عليهم أن يقوموا بأعمال السلب والنهب والعنف ، فعاد الهدوء والاستقرار الى القسطنطينية مرة أخرى .

أعلن المصريون ولاءهم للخليفة الفاطمى ، ونبذوا طاعتهم للخليفة العباسى فقد أدرك المصريون ان انتقال السلطة والنفوذ من خليفة عباسى سنى الى خليفة فاطمى شيعى لن يغير شيئا من الأوضاع السياسية أو الاقتصادية . واقتصرت معارضة الفاطميين على الكافوريين والاخشيديين الذين ألهم ضياع السلطة منهم . وفى ٢٧ شعبان خرج الوزير ابن الفرات والأشراف والقضاة والعلماء والتجار الى الجيزة وقابلوا جوهرًا وهنأوه بالفتح .

(١) القرىزى : انما الحفا ص ٦١ .

علم المعز بفتح مصر فأبدى فرحه وسروره فقد زال تماما النفوذ العباسى والاخشيدي من مصر ، وأصبحت مصر جزءا من الامبراطورية الفاطمية التى أصبحت تمتد من المحيط الأطلسى غربا الى البحر الأحمر شرقا . ولكن مصر لم تصبح ولاية تتبع الدولة كما كانت فى العصر الأموى والعصر العباسى . بل أصبحت قلب الدولة الفاطمية فقد انتقل المعز الى مصر ، واتخذ من القاهرة التى أنشأها جوهر عاصمة جديدة تنافس بغداد ودمشق وقرطبة والقىروان (١) .

رحيل العزيز بالله الى مصر مع أبيه :

بعد أن انتهى جوهر الصقلى من فتح مصر ، بدأ فى انشاء حاضرة جديدة للخلافة الفاطمية تحل مكان الفسطاط والعسكر والقطائع . فوضع أساس العاصمة الجديدة فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وسماها (المنصورية) تخليدا لذكرى المنصور والد المعز ، وظلت تحتفظ بهذا الاسم حتى قدم المعز بعد أربع سنوات فسمى عاصمته القاهرة (٢) .

وأنشأ جوهر سورا حول المدينة الجديدة وبه أربعة أبواب : باب النصر وباب الفتوح وبابا زويلة . وبنى قصرا للمعز عرف باسم القصر الشرقى الكبير . وبنى مسجدا جديدا يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية ، وهو الجامع الأزهر ، فى ٤ رمضان سنة ٣٥٩ هـ . وحذف جوهر اسم الخليفة العباسى من الخطبة والسكة ، وسك عملة جديدة ، ومنع لبس السواد وهو شعار العباسيين ، فاتخذ اللون الأخضر وأضاف الى الأذان عبارة (حى على خير العمل) (٣) ثم كتب جوهر الى المعز يدعو للقدوم الى مصر . استجاب المعز لدعوة جوهر ، فاستخلف بلوكين بن زيرى

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ١١٩ .

(٢) القرىزى : انماط الحنفا ص ١٥٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٤ .

ابن مناد الصنهاجى على أفريقية (تونس) ثم بدأ رحيله الى مصر ، يصحبه ابنه وولى عهده العزيز بالله ، وأفراد أسرته وحمل معه مبالغ ضخمة من الأموال ، وصحب كبار رجال دولته وجثت آبائه الثلاثة الذين سبقوه فى الخلافة ليعيد دفنهم فى القاهرة .

وهكذا ودع المعز والعزيز بلاد المغرب الى الأبد ، ووصلا الى الاسكندرية فى ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، فقدم عليهما أعيان البلاد مرحبين بهما ، وخطب المعز فى مسجد الاسكندرية فذكر انه لم يقصد بدخول مصر الطمع فى اتساع ملكه أو زيادة ثرائه ، وانه أراد إقامة الحق وحماية الحجاج ، وإعلان الجهاد ضد الكفار ، وانه سيعمل بما أمر به جده محمد صلى الله عليه وسلم ، ووعظ المعز أهالى الاسكندرية بعبارات مؤثرة حتى استدر دموعهم (١) .

رحل المعز والعزيز عن الاسكندرية أواخر شعبان الى القاهرة ، حيث نزل فى القصر الجديد الذى بناه له جوهر ، وسجد لله وصلى ركعتين للشكر ، وأطلق الناس على العاصمة الجديدة (القاهرة المعزية) واستقبل المعز أعيان البلاد وتقبل هداياهم ، وأمر بالافراج عن سجنهم الأخشيديون والكافوريون .

أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية بدلا من المنصورية ولكن انتقال الحاضرة الى القاهرة أفقد الفاطميين أفريقية (تونس) فقد أعلن شيخ صنهاجة بلكين بن زبرى استقلاله وأسس الدولة الزيرية سنة ٣٦٢ هـ . وبعد عدة سنوات ظهرت دولة الحماديين سنة ٣٩٨ هـ وفى سنة ٤٤٣ هـ اختفت السيادة الفاطمية تماما فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر .

(١) اتعاط الحنفا ص ١٦٦ .

العزیز بالله فی القاهرة :

بدأ العزیز بالله مرحلة جديدة من حياته فی القاهرة — بعد انتقاله من بلاد المغرب . وأخذ ينظر الى جهود أبيه نظرة إعجاب وتقدير . فقد كان المعز يضع أسس امبراطورية فاطمية كبرى ما لبث العزیز أن تولى حكمها بعد عامين من قدومه الى القاهرة .

رحب المصريون بقدوم المعز وولى هذه العزیز . فقد كان تغيير الحكم فی مصر عاملا على تحسين أحوالهم الداخلية ، فقد وصل المصريون تحت حكم العباسيين الى درجة كبيرة من البؤس والشقاء ، وأبدى المصريون رضاهم لقيام الدولة الفاطمية الغنية فی مصر ، ورضوا عن عهد جوهر الصقلی لهم الذى يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم ، ويضمن حياتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ، ومن اغارات القرامطة الذين طالما تعدوا على حجاجهم ، ومن غزوات الاغريق الذين وقع فی أيديهم اقليم كيليكيا ، وكانوا على أهبة الزحف الى الشام . كما تعهد جوهر باصلاح المساجد وتحسين السكة والفاء السخرة ، وبمنح المصريين الحرية التامة — مسلمين كانوا أم ذميين — فی اقامة شعائرتهم الدينية كل حسب دينه ومذهبه (١) .

أسند المعز شئون حكم مصر الى جوهر الصقلی ، وخلع عليه خلعاً مذهبة وقلده سيفاً ومنحه خمسين ألف دينار . وأقر المعز الوزير جعفر بن الفرات فی منصبه ، كما أبقى على الموظفين المصريين فی وظائفهم ، وأشرك مع كل موظف مصرى موظفاً آخر من المغاربة . واستمر جوهر القائد يحكم ويتولى شئون الدواوين والخراج حتى سنة ٣٦٣ هـ حيث رأى المعز أن يبعده عن الحكم حتى لا يفكر فی الاستبداد بالسلطة واستعان المعز بـ يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن فی النواحي الادارية (٢) .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .

وهكذا كان المعز يضع الاسس السياسية والادارية التى سار
العزیز بالله ، حينما تولى الخلافة بعد عامين ، على نهجها . كما
حرص المعز على نشر الدعوة الفاطمية فى مصر ، باعتبار أن هذه
الدعوة هى أساس الدولة والخلافة الفاطمية . فقد أمر المعز
بنقش هذه العبارة على جدران مصر القديمة وهى « خير الناس
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن
أبى طالب » (١) .

وكان المعز وابنه العزيز من الشعراء المجيدين ولذا اعتمدا
على الشعراء فى الترويج والدعاية للدعوة الفاطمية . وأقبل
الشعراء على الرحيل الى مصر من كل مكان . وأصبح الجامع
الأزهر مركزا للدعوة الفاطمية . وعين المعز (داعى دعاة) يساعده
اثنا عشر نقيبا ، ولكل نقيب نواب ، وكان الفقهاء يلقون كل يوم
اثنين ويوم خميس محاضرات عن أصول المذهب الشيعى . وما لبث
العزیز بالله بعد توليه الخلافة أن حول الجامع الأزهر الى جامعة
علمية كبرى .

وفاة المعز وخلافة العزيز :

حكم المعز حوالى سنتين فى القاهرة فقد عاش معظم حياته
فى بلاد المغرب . وفى عهده أنشئت مدينة القاهرة والجامع الأزهر
وامتد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام والحجاز ونعمت مصر فى عهده
بفترة من الرخاء ومظاهر العظمة والأبهة .

فقد كان المعز يجلس على عرش فخم رائع ، واستن لأول مرة
اقامة الولائم فى قاعة الذهب بقصر الخليفة . وفى تلك القاعة كان
ينعقد مجلس الخلافة واهتم بالاحتفال بالأعياد والمواسم واتصفت
مواكب المعز بمظاهر العظمة . واشتهر المعز بالكرم والبذخ ،

(١) القريرى : خطط ج ٢ ص ٧١ .

وبتشجيع العلماء والأدباء ، ومن أشهر شعرائه ابن هانئ الأندلسي (١) الذي نظم القصائد العصماء التي مدح بها الخليفة وأشاد فيها بأحقية الفاطميين بالخلافة . كما اهتم المعز بعلم النجوم ، مثله في ذلك مثل سائر الخلفاء الفاطميين السابقين واللاحقين ، فكان يستشير المنجمين في مسائل حياته الخاصة وشؤون الدولة . وأمر المعز بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق توضح جميع أقطار العالم .

توفي المعز في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ ، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة ، وبعد أن عهد لابنه العزيز بالله بالخلافة من بعده . وحزنت رعيته لوفاته ، فقد كان المعز كما وصفه ابن خلكان « عاقلاً حازماً أديباً حسن النظر في النجاة » (٢) .

وكانت الدولة الفاطمية تتبع النظام الوراثي في تولية الخلفاء ، فكان الخليفة حينما يشعر بقرب وفاته يعهد بالخلافة لولي عهده ، ثم تتجدد البيعة بعد وفاته له بالجامع . وكان الخليفة الجديد عادة يخفي نبأ وفاة أبيه حتى يتم ويدعم حكمه ويثبت أقدامه . فقد أخفى الخليفة القائم بأمر الله نبأ موت أبيه عبيد الله المهدي فترة ، كما أن الخليفة المنصور بالله لم يعلن عن وفاة أبيه القائم سنة ٣٣٤ هـ مدة طويلة تبلغ عامين حتى نجح في القضاء على ثورة مخلد بن كيداد الخارجي سنة ٣٣٦ هـ . كما أخفى المعز لدين الله نبأ وفاة أبيه المنصور فترة حتى سيطر على زمام الحكم .

وأتبع العزيز بالله نفس السياسة التي انتهجها آباؤه وأجداده . فلم يعلن عن وفاة أبيه المعز لدين الله إلا بعد انقضاء شهر ، نجح خلاله في تدعيم خلافته وهي في مهدها . فقد مات المعز لدين الله

(١) مات ابن هانئ الأندلسي في رجب سنة ٣٦٢ هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمره وحزن المعز على وفاته كثيراً .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

في ١١ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ وأعلن العزيز بالله وفاته في ١٠ من ذى الحجة من السنة نفسها (١) .

تحدث المؤرخ العربى المعاصر (الدكتور حتى) عن مميزات العصر الفاطمى فى مصر فقال : أما من الناحية السياسية فان العصر الفاطمى يعتبر بدءا لعصر جديد فى تاريخ مصر ، اذ لم تتمتع البلاد بنفوذ كامل مملوء بالحياة ومؤسس على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة قبل ذلك الحكم الفاطمى . أما الدولتان السابقتان فلم يكن لهما سلطان قوى ولا دينى فى البلاد ، اذ كان ظهورهما وبقاؤهما راجعا الى القدرة الحربية لمن أسسهما من رجال الحرب كما كان راجعا ايضا الى الحالة السيئة التى كانت عليها الحكومة العباسية (٢) .

حفل تنصيب العزيز بالله خليفة :

شهدت القاهرة ، العاصمة الفاطمية الجديدة ، احتفالا رائعا بتنصيب العزيز بالله كثنانى الخلفاء الفاطميين فى مصر . فازدانت بالرايات والأتوار الساطعة وشارك المصريون الخليفة وحاشيته هذا الاحتفال ، فخرجوا الى الحدائق العامة وشواطئ النيل وركبوا القوارب المزدانة بالأنوار وأقيم فى القصر حفل رائع ، أمه رجالات الدولة ووجوه المصريين .

وجلس العزيز بالله فى الايوان الكبير بالقصر الشرقى ، على كرسى العرش وهو سرير الملك ، وقد صنع من الذهب ، وعليه مرتبة مذهبة ، ووضع الخليفة على رأسه تاجا عظيما يسمونه بالتاج الشريف ، وهو تاج الخلافة الفاطمية ، وقد رصع بالجواهر الثمينة . وقد حذا الخلفاء الفاطميون فى هذا التقليد حذو الاكاسرة الفرس . أما قضيب الملك الذى أمسكه العزيز فى يده فى هذا الحفل فهو عود

(١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٠ .

طوله شبر ونصف ، ملبس بالذهب المرصع بالدر والجواهر (١) ،
والتف حول العزيز الأمراء والأعيان ووجوه المصريين ، وقد وقف
بعضهم أو جلس حسب مرتبته وشرفه .

وارتدى الخليفة العزيز بالله في هذا الحفل ثيابا فخمة من
الحرير الأخضر مقلدا في ذلك أباه المعز لدين الله ، فقد كان الرسول
صلى الله عليه وسلم يلبس بردين أخضرين ، وهذا ما جعل العلويين
يطالبون الناس باتخاذ اللون الأخضر ، وترك اللون الأسود الذي
اتخذه الخلفاء العباسيون شعارا لهم ، وكان العلويون في أول
عهدهم يتخذون اللون الأبيض شعارا لهم .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢ .

عصر تسامح ورخاء وازدهار

مميزات عصر العزيز بالله :

تولى العزيز بالله الخلافة في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ ، وهو في الثانية والعشرين من عمره . وهو خليفة شاب في دولة فتية ، ولذا أصبح عهده العصر الذهبي للدولة الفاطمية .

قضى الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأول ، المهدي والقائم والمنصور ، عهودهم في ارساء قواعد الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . وتوطيد دعائمها ، والقضاء على أعدائها . واخماد الثورات الداخلية ونجحوا في خلق جو من الهدوء والاستقرار في بلاد المغرب ، مما هيأ الظروف للخليفة الرابع المعز لدين الله ليضع المشروع الفاطمي الكبير لفتح مصر موضع التنفيذ . وتكللت جهود المعز بالنجاح والتوفيق وأصبحت الدولة الفاطمية تمتد بين الخليج العربي شرقا والمحيط الأطلسي غربا .

اعتاد المؤرخون أن يبرزوا عصر المعز لدين الله ويسلطوا عليه كثيرا من الأضواء باعتباره القائم بمشروع فتح مصر ، ومؤسس مدينة القاهرة ، ومنشئ الجامع الأزهر ، وهم في الحقيقة يحددون دور العزيز بالله . والحقيقة التاريخية هي ان المعز لم يحكم في مصر سوى عامين . ثم توفي تاركا الدولة الفاطمية لابنه الخليفة العزيز بالله ليكمل ما بدأه أبوه . ومن البديهي أن القاهرة لم تكن في هذه السنوات القليلة قد اكتملت أو نمت ، فقام العزيز باكمال مبانيها والعمل على تطورها ، حتى ظهرت في أواخر عهده على صورتها الرائعة التي وصفها المؤرخون والرحالة الأقدمون . كما أن

ال خليفة المعز لدين الله قصر مهمة الجامع الأزهر على النواحي الدينية ، وعمل العزيز بالله على تطويره حتى أصبح جامعة كبرى ، بمعنى الجامعة المعروف الآن ، وجعله معهدا عاليا للعلوم والفقه . وان كان المعز قد وضع نواة الحضارة الفاطمية في مصر ، فقد تعهد العزيز بالله غرس أبيه حتى نما وترعرع ونضج وأتى بالشمار المرجوة .

ويجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله ، في أخلاقه وعقله ، وسياسته وتسامحه ، ويعتبرونه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظماء . وهناك فارق كبير بين العزيز وبين من خلفه من خلفاء فاطميين مثل الحاكم بأمر الله أو الظاهر أو المستنصر أو غيره من الخلفاء . فقد أصبحت الدولة الفاطمية في عهد العزيز امبراطورية عظمى ، واستقرت الأحوال الداخلية ، فلم تقم ثورات داخلية ذات أهمية مثل الثورات التي كانت تقوم في عهود آباءه . وأصبحت الدولة الفاطمية موضع احترام وهيبة من جميع دول العالم في الشرق وفي أوروبا .

وأضفى المؤرخون القدماء (١) على العزيز بالله كثيرا من الصفات الطيبة فقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير - وجب العلم والأدب ، وكان كآبيه المعز يجيد عدة لغات ، ولذا شجع العلماء والأدباء ، كما كان شاعرا مجيدا ، وتميز بالعفو والتسامح والكرم والشجاعة والاقدام .

أما المؤرخون المحدثون ، فيبرزون دائما عصر العزيز بالله عند تأريخهم للدولة الفاطمية . فقال الدكتور حسن ابراهيم حسن (٢) : يعتبر عصر خليفة العزيز بالله عهد يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافي ، وهو مشهور في تاريخ مصر الاسلامية ، لانه أول من حول

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٨١ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ ، النعماني : نبتة الدرر ج ١ ص ٢٥٤ .
(٢) تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٦ .

الجامع الأزهر الى جامعة بالمعنى المعروف الآن ، بعد أن كان معهدا
خاصا بدراسة الفقه الشيعى وأقامة الصلاة . وقد ترامت رقعة
الامبراطورية الفاطمية فى عهد العزيز بالله من بلاد العرب شرقا الى
ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا الى بلاد
النوبة جنوبا .

وتحت عنوان (النفوذ الفاطمى فى الأوج) كتب المؤرخ العربى
المعاصر الدكتور حتى (١) فى خلال حكم أبى منصور نزار العزيز
(٩٧٥ - ٩٩٦ هـ) خامس خلفاء الدولة وأول من حكم فى مصر
منهم ، وصلت الدولة الفاطمية الى أوجها وكان اسم الخليفة يذكر
فى خطب الجمعة فى جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر
الأحمر واليمن ومكة ودمشق ، بل فى ذات مرة فى الموصل . وقد
وصلت الخلافة المصرية فى عهده الى حد أنها لم تصبح المنافس
الخطير لخلافة بغداد فحسب ، بل الى حد أنها كيفت نفوذها وظفرت
بأن تصبح الدولة الاسلامية الوحيدة ذات النفوذ العظيم فى شرقى
البحر المتوسط . وكان العزيز أعقل وأصلح الخلفاء الفاطميين .
لقد كان يعيش فى بذخ ، وشيد فى القاهرة وأرياضها كثيرا من
المساجد والقصور والجسور والترع . . وقد لقى المسيحيون فى
ظلال حكمه قسطا من التسامح لم يظفروا بمثله من قبل . وقد بدأ
التدهور الفاطمى يسرع بعد الحكم الصالح للخليفة العزيز .

أشاد المؤرخ (ستانلى لينبول) (٢) بعصر العزيز ، فقال : « كان
العزيز يشبه أباه فى حبه للسياسة وإدارة شئون البلاد ، ولم يكن
لما عرف عنه من حب الترف أو البذخ أثر فى الحد من مقدراته
السياسية أو الإدارية . فقد بنى أسطولا ليحارب به الامبراطورية
البيزنطية ، كما أنه شهد بنفسه حملة موفقة على سوريا التى

(١) تاريخ العرب ص ٨١٠ .

(٢) سيرة القاهرة ص ١٣٢ .

لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين . وكان عهده عهد سلام دائم في مصر ، وكان اسمه يذكر في صلاة الجمعة في المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلسي ، كما أنه كان يقف أمام الناس في الجامع الأزهر كرئيس ديني ودنيوي .

ويصف (آدم متر) الخليفة العزيز بالله في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ، فيقول عنه أنه كان أعظم الخلفاء الفاطميين (١) .

عصر تسامح ديني واجتماعي :

يجمع الفاطميون على أن عصر الخليفة العزيز بالله كان أكثر العصور التاريخية في مصر تسامحا ، فقد أطلق الحرية في المسائل الدينية والسياسية .

رأى الخليفتان المعز والعزيز بعد أن قدما الى مصر بمذهب شيعي خالفا به جمهور المسلمين انهما بحاجة الى من يعاونهما في تدعيم دولتهما . ولما أيقنا أنه من المتعذر عليهما الاعتماد على السنين في مصر أنصار الدعوة العباسية ، قربا اليهما أهل الذمة وأظهرا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم في مناصب الدولة والادارة (٢) .

اعتمد الخليفة المعز لدين الله على كثير من الموظفين من أهل الذمة واتخذ أطباء منهم . وبرز من بين أهل الذمة في عهده يعقوب بن كلس ، الذي اعتنق الاسلام ، وتولى بعض دواوين الدولة الفاطمية ، وما لبث أن أصبح ابن كلس وزيرا في عهد الخليفة العزيز بالله . واليه يرجع الفضل في وضع نظم الدولة السياسية والادارية .

(١) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٤ .

(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٨٦ .

نزوح الخليفة العزيز بالله من زوجة مسيحية ، مما جعله يتبع سياسة تسامح مع أهل الذمة ، فأعاد بناء الكنائس واحتفل بالأعياد والمواسم الدينية المسيحية وسمح للبطريق القبطى افراهام باعادة كنيسة أبى سيفين بظاهر الفسطاط وعهد الى عيسى بن نسطورس بالكتابة ، وولى العزيز أخوى زوجته المسيحية أبرز المناصب الدينية . فولى أحدهما بطريكا للملكانيين بيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ وولى الآخر مطرانا للقاهرة . وامتد عطف وتسامح العزيز بالله الى اليهود فولى منشأ بن ابراهيم الفرار واليا على بلاد الشام .

أشاد المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) بسياسة تسامح الخلفاء الفاطميين عامة وتسامح الخليفة العزيز بالله خاصة ، فقال : « بوصول الخلفاء الفاطميين الى مصر ، بدأت فترة من التسامح الدينى واللين لا عهد لأهل الذمة بها ، فقد كان الخلفاء الفاطميون ، باستثناء الحاكم بأمر الله ، يراعون على الدوام رعاياهم المسيحيين . وكثيرا ما بنيت أو أصلحت الكنائس فى عهدهم . وقد كان للخليفة العزيز زوجة مسيحية ، وكان اثنان من اخواتها بطاركة ملكانيين ، كما أن كلا من البطريرك اليعقوبى أفريم وشعيروس أسقف أشمونين ، كانا من خير أصدقاء العزيز - فقد كان العزيز يدعو الأسقف الى قصره ليتحدث مع رئيس القضاة فى المسائل الدينية ، كما سمح العزيز للبطريرك باصلاح كنيسة القديس مركاريوس » .

وعلق المؤرخ الألمانى الكبير (آدم متز) (٢) على تسامح العزيز مع أهل الذمة فقال : وقد أظهر الخلفاء الفاطميون الأولون لأهل الذمة تسامحا نعجب له ، اذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم ، لهم مذهب خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين .

(١) سيرة القاهرة ص ١١٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ج ١ ص ٩٤ .

وأبدى المؤرخ (أوليرى) (١) رأيه في استخدام أهل الذمة في المناصب الادارية في الدولة الفاطمية فقال : ان استخدام المسيحيين واليهود في المناصب الادارية والمدنية هو عرف شائع في البلاد الاسلامية وان بالغ الفاطميون في استعماله اكثر مما جرت به العادة من قبل .

والى جانب سياسة التسامح الدينى التى انتهجها العزيز بالله ، نرى تسامحا عنصريا ، فلم يفرق العزيز في المعاملة بين العناصر المختلفة التى كانت تقيم في مصر وفى سائر اقاليم الدولة الفاطمية ، بل عمل على حفظ التوازن بينها وجنبها الصراع العنصرى أو الطبقي حتى تعيش هذه العناصر كلها في مجتمع واحد متماسك .

فكان جيش العزيز بالله يتألف من جنود من عناصر مختلفة منهم العرب وقبائل المغرب من البربر ، ومن الصقالبة ، ومن الأتراك والديلم . ولم يكن العزيز بالله بقادر على أن يهمل المغاربة ، فقد قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب على عواتقهم ، وكانوا يعتنقون المذهب الفاطمى الذى هو أساس الدولة . ولذا برزت قبيلتا كتامة وزويلة المغربيتان وأراد العزيز بالله أن يحد من تضخم نفوذ المغاربة فاعتمد أيضا على بعض الأتراك ، فقد عهد الى برجوان بتربية و تثقيف ابنه وولى عهده الحاكم بأمر الله ، وولى بعض الأتراك المناصب الادارية .

كما عمل العزيز بالله على تحقيق رفاهية الشعب المصرى . نرى ذلك واضحا فيما قام به من اصلاحات كثيرة ونظم ادارية ، وفى دعوتهم الى الولائم الحافلة التى اقامها فى قصوره فى جميع المناسبات الدينية والقومية . واهتم العزيز بالاحتفال بالأعياد المصرية القومية التى اعتادوا الاحتفال بها قبل الفتح المصرى ، وخاصة الاحتفال بجبر الخليج أى وفاء النيل ، فقد كان هذا

الاحتفال من أروع الاحتفالات الفاطمية . وحرص العزيز بالله على تنفيذ ما تعهد به جوهر الصقلي للمصريين عند فتحه مصر . وأمر الخليفة المغاربة أن يسكنوا أطراف القاهرة ، ونهاهم عن مضايقة المصريين .

وجنى الخليفة العزيز بالله ثمار سياسته في حفظ التوازن بين جميع العناصر فلم تقم في عهده اضطرابات بين المغاربة والمصريين ، أو بين المغاربة والأتراك بينما شهد عهد ابنه الحاكم بأمر الله صراعا عنيفا بين الأتراك بزعامة برجوان والمغاربة بزعامة ابن عمار (١) .

ومن عناصر جيش الخليفة العزيز بالله ، السودانيون ، وقد تكاثروا عددهم في مصر منذ عهد كافور في الدولة الأخشيديّة . وتكاثر عدد الجند الأتراك في عهد العزيز ، وعمل العزيز دائما على التخفيف من حدة العداء بين هؤلاء الأتراك وبين السودانيين . وكان العزيز مثل أبيه العزيز يجيد اللغة السودانية .

سياسة العزيز نحو أهل السنة في مصر :

امتدت المذاهب الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي الى مصر ، وهي مذهب الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (توفي سنة ١٥٠ هـ) ومذهب الامام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ومذهب الامام محمد بن ادریس الشافعي القرشي (ت ٢٠٤ هـ) ومذهب الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) .

وعلى الرغم من أن مذهب الامام أبي حنيفة أقدم المذاهب السنية إلا أن مذهب مالك هو الذي دخل مصر أولا وانتشر بها . ولم يزل المصريون يتبعون مذهب الامام مالك الى أن قدم الامام أبو عبيد الله محمد بن ادریس الشافعي الى مصر سنة ١٩٨ هـ ،

(١) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤ ، ابن منجب : الاشارة ص ٢٧ .

وأظهر بها مذهبه الجديد ، وجعله يلائم الحياة المصرية ، فمال إليه عدد كبير من المصريين ، وصار لكل من مذهب الامام مالك والامام الشافعي اتباع في مصر ، كما نبغ فيها كثير من فقهاء المالكية والشافعية (١) .

وقد حاول الفاطميون في العصر الأخشيدي أن ينشروا المذهب الفاطمي الشيعي في مصر ، فقد بعث الخليفة الفاطمي الثاني بالمغرب القائم بن عبيد الله المهدي برسالة الى الأخشيد يطلب فيها منه السماح بنشر الدعوة الفاطمية في مصر ، ولكن الأخشيد لم يستجب لنداء الخليفة الفاطمي ، وماطل الرسول ، فقد رأى الاحتفاظ بصداقة كل من الخليفة الفاطمي في المغرب والخليفة العباسي في العراق ثم ساءت العلاقات بين الأخشيد والخلافة العباسية فألقى الأخشيد الخطبة للخليفة العباسي ، ودعا للخليفة الفاطمي ، فكان هذا بمثابة الاعتراف بالنفوذ الفاطمي في مصر ، ومما مهد لانتشار الدعوة الشيعية بين المصريين . ولكن العلاقات ساءت بين الأخشيد والخليفة الفاطمي المنصور بن القائم وفكر المنصور في غزو مصر ، ولكنه انشغل بمشاكل الدولة الداخلية .

وقام المعز لدين الله الفاطمي ، قبل نجاح حملة جوهر بمحاولة لفتح مصر ولكن هذه الحملة وان أخفقت عسكريا إلا أنها نجحت في نشر المذهب الشيعي الفاطمي ، فقد أحسن كافور الأخشيدي استقبال الدعاة الفاطميين . ولكنه لم يسمح بانتشار المذهب الفاطمي على نطاق واسع فقد أراد كافور أن يفوز بصداقة الخليفة العباسي السني ، والخليفة الفاطمي الشيعي . فقد ذكر المؤرخ أبو المحاسن (٢) : « وكان يهادن المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء ويتم له الأمر » .

(١) جمال سرور ، الدولة الفاطمية ص ٨٠ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٦٠ .

وقبل قدوم جيش جوهر الصقلي ، كان المذهب الفاطمي الشيعي قد انتشر بين عدد غير قليل من المصريين ، وكان هؤلاء في مقدمة من عاونوا الجيش الفاطمي في فتح مصر . وكانت الاسكندرية اكثر مدن مصر التي انتشرت فيها الدعوة الشيعية . ولذا دخلها جوهر بدون مقاومة سنة ٣٥٨ هـ ، وتوسط بعض العلويين بين المصريين وجوهر ، حتى يمنحهم امانا على ارواحهم وممتلكاتهم .

جاء في عهد جوهر : « . . الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذهبكم ، وان تتركوا على ما كنتم عليه من اداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم . وثباتكم على ما كان عليه سالف الأمة من الصحابة رضى الله عنه والتابعين بعدهم . وفقهاء الانصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم . وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليلته ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه في سنته . وأجرى اهل الذمة على ما كانوا عليه . . » (١) .

اصبح هذا العهد بمثابة التعاقد بين الخلفاء الفاطميين والمصريين ودستورا سار عليه كل من المعز وابنه العزيز . وجعل هذا العهد المصريين يرحبون بالحكم الفاطمي الجديد . ويذكر ابن خلكان (٢) أن المصريين كانوا يتوقعون فتح الفاطميين لمصر ، وقد كتبوا الى الخليفة المعز يطلبون اليه أن يبعث بجيش لفتح مصر . ولم يقاوم الجيش الفاطمي الا الجند الأخشيديون .

وفي الحقيقة لم يعارض المصريون في تحويل طاعتهم من خليفة عباسي الى خليفة علوي ، لأنهم كانوا يدركون تماما أن انتقال السلطة من عباسي الى فاطمي أو من سني الى شيعي ، ليس من شأنه أن يحدث أى تغيير في حالتهم السياسية . بل قد يؤدي تغيير الحكم

(١) انظر نص عهد جوهر في كتاب اتماظ الحنفاء للمقرئى ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢) وفيات الاميان ج ٢ ص ٢٤٨ .

الى تحسين احوال المصريين الداخلية ، فقد ساءت هذه الأحوال تحت حكم العباسيين الى درجة كبيرة . ولذا بعث عهد جوهر الآمال عند المصريين ، فقد أمنهم على أرواحهم وأموالهم ، وتعهد بحماية مصر من الأعداء ، وإصلاح المساجد وتحسين العملة والسكة ، وإلغاء السخرة ، ومنح المصريين سنين وأهل ذمة - الحرية الدينية الكاملة في القيام بالشعائر الدينية (١) .

كان المذهب الشيعي هو الأساس الذي قامت الدولة الفاطمية عليه . ولذا عمل الخلفاء الفاطميون على نشر مذهبهم بين المصريين تدعيمًا للدولة ، وحفظًا لكيانها ، وتحقيقًا لوحدها وتماسكها . ولما كانت المذاهب الدينية لا تفرض بالقوة أو بحد السيف ، بل بالاعتناق والإيمان . ولذا عمل الخلفاء الفاطميون على تشجيع المصريين وأغرائهم على اعتناق مذهبهم الشيعي .

وتحقيقًا لهذه السياسة ، ولي الخليفة العزيز بالله الشيعيين المناصب الكبرى وخاصة القضاء واتخذ من المساجد الكبرى في مصر مراكز للدعاية للمذهب الشيعي . وهى مساجد عمرو بن العاص وأحمد بن طولون والجامع الأزهر . وحول العزيز الجامع الأزهر الى جامعة كبرى تقوم بتدريس الفقه الشيعي والفقهاء وزير العزيز يعقوب ابن كلثوم الرسائل في المذهب الاسماعيلي بتكليف من الخليفة . واختار العزيز جماعة من كبار المتفهمين في مذهب الشيعة لنشر الدعوة الفاطمية يرأسها رجل يسمى (داعي الدعاة) ويعاونه اثنا عشر نقيباً ، ونواب في سائر المدن المصرية وأصبح القضاء يصدر عن أحكامهم وفق قوانين المذهب الشيعي .

وكانت الرغبة في الوصول الى مناصب الدولة دافعا بفريق من المسلمين السنيين الى التحول الى المذهب الشيعي . كما دفعت تلك الرغبة أيضا بعض الدمييين الى اعتناق الاسلام واتخاذ التشيع

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٨ .

مذهبا لهم . كما رأى بعض الموظفين السنيين أن من صالحهم للاحتفاظ بمناصبهم أن يتحولوا الى المذهب الشيعى . حتى لا يتعرضوا الى العزل أو النبذ ، والناس دائما على دين ومذهب ملوكهم .

وفى نفس الوقت عمل الخليفة العزيز بالله على إبراز الشعائر الشيعية مثل الأذان الشيعى الذى كان يضاف اليه عبارة (حى على خير العمل) كما أبرز الأعياد الشيعية مثل الاحتفال باليوم العاشر من شهر المحرم وهو اليوم الذى استشهد فيه الحسين بن على فى كربلاء فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية . ومثل الاحتفال بعيد غدیر خم (١٨ ذى الحجة) وهو اليوم الذى ترى الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بايع فيه على بن أبى طالب ، فقد كان الرسول راجعا من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وتوقف فى طريقه عند غدیر خم ، فأخذ بيد على بن أبى طالب وقال للمسلمين : الستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى . فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وفى العاشر من المحرم ، كان المصريون الشيعيون والمفاربة يسيرون فى مواكب فى طرقات القاهرة ينوحون ويبكون على الحسين ابن على ، ويلعنون قتلته .

ورأى السنيون أن المصريين ازاء اهتمام الشيعيين باظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها كما تحتفل الشيعة بعيد غدیر خم فاحتفل السنيون باليوم الذى دخل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق . وقالوا أنه يوافق ٢٦ من ذى الحجة ، وأبرزوا الزينات والابتهاج وأوقدوا النيران . ورأت الحكومة الفاطمية فى عهدى المعز والعزيز الا تمنع اهل السنة فى مصر من احياء هذا العيد حتى لا تثير غضبهم .

ومضى العزيز بالله على سياسة أبيه المعز في نشر المذهب الفاطمي واتباع الطرق السلمية ، فقصر المناصب الكبرى على الشيعة . وأمر قضاته أن يتبعوا في أحكامهم المذهب الشيعي ، وأقبل كثير من الموظفين على اعتناق هذا المذهب (١) ..

وأُسند العزيز بالله أمر نشر الدعوة الفاطمية الشيعية الى موظف كبير يسمى (داعي الدعاة) وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة . ويرتدى نفس زيه ويتولى نشر الدعوة ويأخذ العهد على المريدين . اما مباشرة أو بواسطة نوابه في مصر ، والإشراف على محاضرات الفقه الشيعي . وعرضها على الخليفة لتوقيعها واعتمادها ، وكثيرا ما كان داعي الدعاة يقوم بنفسه بالقاء هذه المحاضرات . وخصص الخليفة العزيز بالله له مكانا خاصا في قصره . فكان يعقد المجالس ويلقى محاضراته . وكان يجلس على كرسي الدعوة في الايوان الكبير في القصر الشرقي وكان للنساء مجلس خاص يسمى (مجلس الدعوة) يتعلمون فيه اقواعد المذهب الشيعي .

وقد وصف المقرئى هذه المجالس وميز بينها حسب من كانوا يحضرونها فهناك مجلس لآل على بن أبى طالب ، ومجلس لوجوه القوم وكبار الموظفين ومجلس لعامة الناس أو الضيوف القادمين من الدول الأخرى ، ومجلس للنساء وكان يسمح للنساء أيضا بحضور المحاضرات في الجامع الأزهر الذى أصبح في عهد العزيز بالله جامعة علمية . واذا انتهى داعي الدعاة من القاء محاضراته يتقدم الحاضرون اليه فيقبلون يده ، ويمسح على رؤوسهم بالجزء الذى فيه توقيع الخليفة .

ولى العزيز بالله قاضي القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة الى المذهب الفاطمي في القصر كما ولى اخاه الحسين الدعوة بالقاهرة ، ومثلما تولى ابوهما أبو حنيفة النعمان المغربى أمور الدعوة من قبل

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٨٦ .

في بلاد المغرب . واشتد الزحام بالناس في أحد هذه المجالس في عهد العزيز حتى مات منهم أحد عشر رجلا .

وكان الخليفة العزيز بالله في سياسته الشيعية معتدلا منصفاً ، بينما حاد الخلفاء الذين تولوا بعده عن هذه السياسة المتسامحة . وغالوا في نشر المذهب الفاطمي ، واشتدوا في معاملة أهل السنة . وخاصة الخليفة الحاكم بأمر الله الذي أمر بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة . فقد اعتبر هؤلاء مفتصبين لحق على بن أبي طالب في الخلافة ، كما منع الحاكم بأمر الله أهل السنة من إقامة شعائرهم التي كانوا يقومون بها في عهد أبيه الخليفة المتسامح العزيز بالله (١) .

ورغم اجتهد الدولة الفاطمية في نشر المذهب الشيعي بين أهالي أقطار الدولة إلا أن جهودهم لم تكفل بالنجاح تماماً وظل المذهب السني محتفظاً بقوته وانتشاره رغم اعتناق بعض المصريين المذهب الفاطمي . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفاطميين بعد انتهاء فتح مصر واستقرارهم بها ، تركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنيين واتخذوا لهم حاضرة جديدة لتكون مقراً لانصارهم ودعاة مذهبهم . كما شيدوا لهم مسجداً خاصاً وهو الجامع الأزهر ، وسمحوا لأهل السنة باظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم .

ولذا أصبحت تعاليم مذاهب الامام مالك والامام الشافعي والامام أحمد بن حنبل تدرس في مصر طوال عهدي الخليفين المعز والعزيز بل كان الخلفيتان يراعيان مذهب الامام مالك ، وكان من يسألهما الحكم به يجيبانه إلى طلبه . أما مذهب الامام أبي حنيفة ، فلم يلق تأييداً من الفاطميين لأنه مذهب أعدائهم العباسيين وظهر في عصر الخليفة العزيز بالله بعض علماء مذاهب أهل السنة وكانوا

(١) ابن خلكان : وفیات الاميان ج ٢ ص ١٦٦ .

يلقون دروسهم على جمهور الناس في جامع عمرو بن العاص بمدينة
الفسطاط (١) .

ولكن أهل السنة في مصر لم يرضوا عن التشريعات التي
ادخلها الفاطميون ، فقد رأوا أنها تتنافى مع ما ينص عليه القرآن
الكريم والسنة النبوية ، فقد كان القانون الشيعي يجيز للبنت أن
ترث كل ما تركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود
ذوي العصب ، وهذا يخالف المذهب السني الذي يقضى بالأثر
البنت أكثر من نصف التركة .

اعتمد الخليفة العزيز بالله في بلوغ أغراضه في نشر المذهب
الشيعي على الشعراء والأدباء والعلماء وكبار الموظفين ، فأصبحوا
لسانا ناطقا بما يريد العزيز . كما اشتهر العزيز بالعطف على
الفقراء ، وإقامة الولائم الفاخرة لرعاياه في المناسبات الدينية والأعياد
العامة ، مما استمال به القلوب والنفوس فأحبت عامة الناس الخليفة
العزيز ومذهبه الشيعي .

عصر رخاء وازدهار :

كان عصر الخليفة العزيز بالله هو العصر الذهبي للدولة الفاطمية
فقد بلغت في عهده أوجها وذروتها . وأصبح لمصر في عهده طابع
خاص يميزها عن العهود التي سبقتها وخاصة في العصرين الطولوني
والأخشيدي فيقول المؤرخ العربي المعاصر الدكتور حتى (٢) : « أن
العصر الفاطمي يعتبر بدءا لعصر جديد في تاريخ البلاد ، إذ لم تتمتع
مصر بنفوذ كامل مملوء بالحيوية ومؤسس على قواعد دينية منذ
أيام الفراعنة قبل ذلك الحكم الفاطمي . أما الدولتان السابقتان
الطولونية والأخشيديّة ، فلم يكن لهما سلطان قوى ولا ديني في
البلاد ، إذ كان ظهورهما وبقاؤهما راجعا إلى القدرة الحربية

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ٨٥ .

(٢) تاريخ العرب ص ٨١٠ .

لمن أسسهما من رجال الحرب . كما كان راجعا أيضا الى الحالة السيئة التي كانت عليها الحكومة العباسية .

اتسعت رقعة الدولة الفاطمية في عهد العزيز بالله ، وفاقته في اتساعها وعظمتها ما كانت عليه في عصر أبيه المعز لدين الله ، وساد الهدوء والسلام في أرجاء الدولة ، وتمتع أهل الدمة بالتسامح والطمأنينة ، وظهرت أبهة الخلافة وعظمتها . وزاد ثراء الدولة الفاطمية الى درجة كبيرة حتى كانت خيول العزيز تكسى بالزرد المطعم بالذهب وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر . وأصبحت قصور الخليفة تحفا فنية رائعة ولم يشهد المسلمون مواكب جليلة مثل مواكب العزيز . وأثبت العزيز مقدرة كبيرة في السياسة والادارة . وعمل على اصلاح دواوين الحكومة ، فمنع الرشوة كما اهتم بمرافق الدولة وضروب الاصلاح ، فشيّد كثيرا من المباني وحفر الترع وأنشأ الجسور ومرافئ السفن ، وظهرت نهضة ثقافية واقتصادية شاملة .

وقد رسم المقرئى صورا كثيرة للرخاء الذى تمتعت به مصر في عهد الخليفة العزيز بالله . فأطنب في وصف خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والطعام والشراب . ووصف المقرئى قصر العزيز بالله وصفا يوضح ثراء الدولة الواسع في عهده (١) . وامتد الثراء والترف الى سائر رجال الدولة فيحدثنا ابن خلكان عن حياة الترف التى عاشها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، فقد كان اتخذ في عصره مطابخ خاصة له ولضيوفه وأخرى لفلمانه وحاشيته وأتباعه . كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون ازهى الملابس الحريرية ويتقلدون بالسيوف (٢) .

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٤٤١ .

ودخلت مصر فى عهدى الخليفين المعز والعزىز فى دور جديى متمىز له طابعه الحضارى الخاص . وفى ذلك يقول المؤرخ (ستالى لينبول) (١) انه بفضل التسامح السياسى لفتاح مصر وتجنب مبادئ الشيعة المتطرفة وافق الناس على النظام الجديد . على أن التغيير الحقيقى كان من الناحية السياسية . فلم تعد القاهرة عاصمة ولاية تابعة للخلافة القديمة ، أى الخلافة العباسية ، أو حتى ولاية مستقلة ضمنا متصلة بتلك الخلافة وإنما كانت عاصمة دولة منافسة هى امبراطورية البحر المتوسط ، أى الامبراطورية الفاطمية . وقد كان للتنافس بين القاهرة وبغداد ، بين خلافة الشيعة الناشئة القوية وبين النظام الفاطمى ، والنظام السنى المتداعى ، أثر بعيد المدى فى مضمار السياسة والحضارة . وقد كان لقوة الفاطميين البحرية واتصالاتهم بدول أوروبا أثره فى ايجاد عنصر جديد فى السياسة الخارجية ، وتنشيط التجارة وتغيير حضارة مصر وسوريا من نواح كثيرة مختلفة .

تمتعت مصر وسائر أقاليم الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العزيز بالله بكثير من مظاهر الحضارة والرخاء والازدهار . وتتضح معالم الحضارة لنا فى فصول الكتاب التالية .

قاهرة المعز والعزير

اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على القاهرة اسم القاهرة المعزية ، اذ كان قيام هذه الحاضرة الكبرى في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي . ولكننا نفضل أن نطلق على القاهرة اسم (القاهرة المعز والعزير) فان كان المعز قد شيد القاهرة ، فقد أكمل العزير تشييدها ، وعمل على تطورها وتقدمها وتوفير وسائل حضارتها ونهضتها . حتى أصبح من الاجحاف للعزير أن تقصر فضل انشاء القاهرة على المعز وحده ، وخاصة ان المعز لم يحكم في القاهرة سوى عامين ، بينما حكم العزير ٢١ عاما (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) وكانت هذه الفترة هي العصر الذهبي للقاهرة وللدولة الفاطمية .

نشأة القاهرة :

انشأ الفاطميون القاهرة ، فأصبحت رابعة عواصم مصر في العصر العربي الاسلامي ، وفكر جوهر الصقلي في انشاء حاضرة للدولة الفاطمية منذ اللحظة الاولى للفتح الفاطمي لمصر . فقد دخل جوهر الصقلي الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية الاولى في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وفي نفس الليلة أرسى جوهر قواعد القاهرة .

بدأ جوهر بناء المدينة الجديدة بأن وضع أساس قصر الخليفة المعز وقد اختطت كل قبيلة من قبائل المغاربة البربر خطة سمها باسمها حول هذا القصر . ثم أقام جوهر سورا ، وأطلق على المدينة

الجديدة اسم المنصورية نسبة الى المنصور والد المعز . ولكن المعز حين قدم الى مصر أطلق عليها اسم القاهرة (١) .

وحين قدم المعز الى مصر لم يعجبه موقع القاهرة ، وكان يرى أن تكون في سفح جبل المقطم ، أو على شاطئ النيل ، فقال لجوهر : « لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل ، كان ينبغي عمارتها بهذا الجبل » (٢) .

ولكن الحقيقة أن جوهر الصقلي قد أصاب في اختيار موقع القاهرة ، لأن الجند يستطيعون أن يصدوا الحملات التي تأتي عن طريق النيل بخروجهم من أبواب السور الغربى ، كباب سعادة ، وباب الفرج ، وباب القنطرة وغيرها . وبذلك يقفون في وجه العدو إذا حاول الاستيلاء على الفسطاط وكان موقف جوهر من الناحية الاستراتيجية أقوى من موقف الروم حين هاجمهم عمرو بن العاص في قرية أم دنين الواقعة على النيل . كما أن جوهر اتخذ ترعة الخليج مكانا للدفاع عن حاضرة ولايته ، كما فعل أباطرة الدولة البيزنطية الذين اعتمدوا في الدفاع عن مدينة القسطنطينية من الناحية البرية الشمالية على قناة القرن الذهبى . وإذا علمنا أن عمرو بن العاص لم يستطع أن يتجه الى حصن بابلون ، إلا بعد أن أقضى على معقل الروم ، في موقعة الجبل الأحمر شرقى العباسية ، أدركنا بعد نظر جوهر بتحصين مدينة القاهرة من الناحية الشمالية لأن ذلك ينطوى على الدفاع عن القاهرة بل عن الفسطاط والعسكر أيضا (٣) .

تقع القاهرة شمالى الفسطاط ، وكانت وقت انشائها تمتد من منارة جامع الحاكم ، الذى أنشأه العزيز الى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هى حدود القاهرة الحالية . أما الجهة الغربية

(١) انعام الحفا ص ٧٣ .

(٢) المعز لدين الله ص ٢١٦ .

(٣) المعز لدين الله ص ٢١٦ .

فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين ، وتحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة وشرقا بباب الرقبة والباب المحروق (الدراسة الآن) وغربا بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة . وكانت القاهرة فى عهدى المعز والعزیز تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعيرة والموسكى والفورية وباب الخلق . وكانت هذه المدينة محاطة بسور من آجر كبير الحجم . وقد اختط طريق عام يخرق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح . وكان يوصل الى الفضاء الواقع فى الشمال . والى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر .

اختلف المؤرخون فى سبب تسمية مدينة القاهرة بهذا الاسم . فقال ابن دقماق : انها سميت كذلك لأن أساسها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر ، وهو كوكب يقال له (القاهر) . ويقول المقرئى ان القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد بناء حاضرة جديدة يقيم فيها الجند الفاطميون . وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس فاختاروا طالعا لوضع الأساس ، وطالعا لوضع السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين جبل فيه أجراس ، وطلبوا من العمال أن يضعوا الأساس حين يسمعون صلصلة الأجراس وبات العمال يترقبون ، واذا بغراب يقع على جبل فتتحرك الأجراس كلها وظن العمال أن المنجمين قد حركوا الجبل ، فبدأوا فى وضع الأساس وكان المريخ حينئذ فى الطالع ، وهو قاهر الفلك ، فسموا المدينة الجديدة القاهرة .

وقيل أيضا انها سميت القاهرة لأنها تقهر كل من خرج على أمرائها وقد تكون تسميتها مشتقة من العبارة التى قالها الخليفة المعز لدين الله لقائده جوهر عند خروجه لفتح مصر وهى « ولتدخلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » .

تطور القاهرة في عهد العزيز بالله :

تطورت القاهرة في عهد العزيز بالله تطورا كبيرا ، فلم تكن القاهرة في عهد الخليفة المعز لدين الله سوى مكان يقيم فيه الخليفة وحاشيته وجيشه ، فيذكر المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) انه لم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة التى بنيت حول المدينة أن يبنى داخلها عاصمة للقطر المصرى ، وانما كان الغرض منها أن تكون مقرا للخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة . ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون اليها فلم يكن يسمح بالدخول لأحد من الأبواب بدون اذن . بل أكثر من ذلك ان سفراء الدول الأجنبية كانوا يترجلون حينما يصلون الى الأسوار ، ثم يصلون الى القصر فى حراسة بعض الجند كما كان الحال فى النظام البيزنطى .

ثم اتسعت القاهرة فى عهد العزيز ، وأصبحت عاصمة للدولة الفاطمية الكبرى فتطورت مبانيها وشوارعها وأسواقها وسكنتها جماعات مختلفة من المصريين وخاصة أرباب المهن والحرف والتجار ونزح اليها كثير من أهل الفسطاط ، وكان سكان القاهرة فى عهد المعز من المغاربة فقط . كما كان لتحويل العزيز الجامع الأزهر الى جامعة أثره فى جذب آلاف الطلاب من جميع أرجاء العالم الاسلامى .

وكانت هذه المدينة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد المقيزى بقاياه سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) وقد تخلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد (بين القصرين) وكان يسع عشرة آلاف من الجند ، وما زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين . والى الشرق منه يقع قصر الخليفة ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلي ، وآخر بمسجد الحسين وأطلقت هذه التسمية (بين القصرين) بعد أن بنى الخليفة العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربى ، عند مبدأ هذه الحديقة التى أنشأها كافور الأخشيدى .

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح . وكان يوصل الى الفضاء الواقع في الشمال . والى الجنوب الشرقي من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذى شرع جوهر فى بنائه (فى ٢٤ جمادى سنة ٣٥٩ هـ) بعد أن وضع أساس العاصمة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . والى الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينة الفسطاط التى ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهالى والى الغرب تقع المقس وكانت تمتد الى النيل وكانت ميناء القاهرة (١) .

وصف على مبارك باشا القاهرة القديمة فذكر أن طول كل جانب من جوانب المدينة التى أسسها جوهر كان يبلغ ألفا ومائتى متر . ومساجد هذا المكان ٣٠٤ فداناً (الفدان ٤٢٠٠ متر مربع) وكان القصر يشغل منه مساحة مقدارها سبعون فداناً . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فداناً ، كما يشغل المكان المخصص لاستعراض الجند ٣٥ فداناً أخرى . والباقي قدره مائتا فدان لسكنى العساكر (٢) .

وضع الخليفة المعز بنفسه تصميم قصره . وزاد الخليفة العزيز بالله فى هذا القصر فأنشأ البهو الذهبى ، والايوان العظيم ، كما أنشأ القصر الغربى الصغير ، والمبنى الذى كان يستريح فيه فى حديقة كافور .

وكان القصر الغربى الصغير الذى بناه العزيز فى غرب القصر الشرقى أصغر مساحة ، وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون . وأنشأ العزيز كثيراً من المنشآت العامة بالقاهرة كالفنادق والحمامات . وكانت كلها ملكاً خاصاً للخليفة . وكانت الدكاكين

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٠ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٤ - ٢٢ .

في القاهرة كذلك ملكا خاصا له . يتراوح ايجار كل منها ما بين دينارين وعشرة دنائير في الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا بالبن ، يفصل معظمها عن بعض حدائق بهيجة .

وتحدث ابن خلكان عن كثير من منشآت العزيز بالله ، فذكر أنه أنشأ الجامع المعروف بجامع الحاكم الذي أسسه سنة ٢٨٠ هـ وقصر الذهب ، وجامع القرافة العظيم . وقصورا أخرى في عين شمس وقصر البحر الذي يقول عنه ابن خلكان أنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب .

أما جامع القرافة فقد أنشأته السيدة تغريد زوجة المعز في عهد العزيز سنة ٣٦٦ هـ ، وبذلت أموالا كثيرة في سبيل انشائه وقام بتصميم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، وكان يحيط بهذا الجامع في الغرب حديقة غناء وصهريج كبير للماء . واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا . وفي جوانبه أروقة كالأزهر وكانت نقوشه مرآة تعكس تقدم الفنون الفاطمية . أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحا بالحديد . وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر بابا مربعا ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف . وكانت ألوان الأبواب زرقاء وحمراء وخضراء وكانت أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ذات ألوان زاهية (١) .

حتى إذا انتهى الحسن بن عبد العزيز المحتسب من بناء مسجد القرافة كلفته السيدة تغريد بأن يشيّد لها قصر القرافة في سنة ٣٦٦ هـ وكان يتصل بهذا القصر بستان رائع وحمام وبئر . ووصف المقرئى هذا القصر الفخم بأنه كان يسر الناظرين ، تتردد عليه السيدة تغريد والخليفة العزيز في أوقات متقاربة طلبا

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤١٥ .

للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به
المسافرون من الشمس .

أما جامع الحاكم ، فقد أسسه الخليفة العزيز في شهر رمضان
سنة ٣٨٠ هـ ، وصلى فيه صلاة الجمعة سنة ٣٨١ هـ ثم توفي
العزيز دون أن يتم هذا الجامع ، فقام ابنه وخليفته الحاكم بأمر الله
بإتمامه (١) .

تطوير الجامع الأزهر في عهد العزيز بالله :

قبل الفتح الفاطمي ، كان في مصر ثلاثة مساجد جامعة هي :
جامع عمرو بن العاص الذي أنشئ بعد الفتح الإسلامي سنة ٣١ هـ ،
وجامع العسكر الذي بناه والي العباسي الفضل بن صالح
سنة ١٦٩ هـ ، وجامع أحمد بن طولون الذي شيده صاحبه بعد
استقلاله عن الدولة العباسية سنة ٢٦٣ هـ .

وبعد أن انتهى جوهر الصقلي من فتح مصر ، وتأسيس مدينة
القاهرة رأى ألا يفاجئ السنين في مساجدهم بشعائر المذهب
الشيوعي حتى لا يثير مشاعرهم ضد الحكم الفاطمي الجديد ولذا رأى
أن ينشئ جامعا جديدا يكون مركزا للدعوة الفاطمية الشيعية ورمزا
للسيادة الفاطمية ، فبدأ بناء الجامع الأزهر في يوم السبت ١٤ من
رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) وتم البناء في عامين تقريبا وأقيمت
فيه الصلاة لأول مرة في ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢) .

وأطلق جوهر ، في بادئ الأمر ، على الجامع الجديد اسم
(جامع القاهرة) نسبة الى الحاضرة الجديدة ، ويرى البعض
أن الفاطميين سموه بالأزهر تخليدا للذكرى جدهم (فاطمة الزهراء)
بنت الرسول صلى الله عليه وسلم . ويرى فريق ثالث أن الجامع

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٤ .

الأزهر قد سمي بهذا الاسم لما سيكون له من أثر كبير في ازدهار العلوم به .

وكان الجامع الأزهر يتوسط العاصمة الجديدة القاهرة ، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحنًا ، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التي بناها جوهر ، ففيها ستة وسبعون عمودًا من الرخام الأبيض اللون في صفوف متساوية . أما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف مرصوف بالحجر يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص ، وزينت جدرانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل .

وانشأ جوهر بالمقصورة محرابًا يسمى الآن القبلة القديمة . وكان للجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وقد نقل فيما بعد إلى جامع الحاكم الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله . وأنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ومهنته التنبيه على أوقات الصلوات وكان يعرف الأوقات بالنظر في الزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر . وكانت مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر .

تطور الجامع الأزهر في عهد الخليفة العزيز بالله تطورًا كبيرًا ، فقد أقام جوهر هذا الجامع ليكون كغيره من المساجد لإقامة الشعائر الدينية ، ولكن العزيز بالله طوره حتى أصبح جامعة يتلقى فيها الطلاب العلم ورواده من كل أرجاء العالم مختلف العلوم والفنون . ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية .

وعمل الخليفة العزيز بالله على جذب طلاب العلم من كل مكان في العالم الاسلامي بما كان يقدمه اليهم من مسكن ومأكل ووسائل الحياة والراحة وأقام مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع كما حبس عليه كثيرا من الاوقاف غير الهدايا القيمة من وقت لآخر .

وكان الخليفة العزيز بالله أول من بنى جوار الأزهر دارا لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرأون القرآن الكريم الى صلاة العصر ، واغدق الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس عليهم الصلات والأزاق (١) .

واهتم العزيز بالاحتفال باقامة الصلوات بالجامع الأزهر في أيام الجمعة والأعياد ، وكان كثيرا ما يؤم بنفسه الناس في الصلاة ويخطب فيهم كما شهد الجامع كثيرا من الاحتفالات الدينية طوال عهد العزيز بالله .

وفي اوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة ألفها في الفقه الشيعي على المذهب الاسماعيلي تسمى الرسالة الوزيرية ، تضمنت ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز . وكان يفد الى سماعه الفقهاء والقضاة واكابر رجال الدولة . وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره ، يقرأ فيها مصنفااته على الناس (٢) .

علق المؤرخ (ستانلى لينبول) (٣) على تطوير العزيز بالله للجامع الأزهر حتى أصبح جامعة كبرى فقال : وفي عام ٩٨٨ م أصبح العلماء يؤمون الجامع الأزهر من كل حذب وصوب ، ومنذ ذلك الوقت صار ذلك الجامع من أهم الجامعات الاسلامية كافة يجتمع فيه عدد

(١) حسين ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٦ .

(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ١٧٤ .

(٣) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢١ .

وفير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الاسلامى من ساحل الذهب حتى ولايات الملايو ، ولكل شعب رواق خاص به . ويتلقى هؤلاء الطلاب على أيدي الشيوخ دروسا في مختلف فروع الثقافة العربية مثل القرآن والحديث والتفسير والفقه والقواعد وعلم العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما الى ذلك . ويتعلم هؤلاء الطلبة بالمجان ، ولم يبخل أهل العلم والأدب في القاهرة بعلمهم وثقافتهم على طلابهم . وكان الطلاب الأجانب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب ، بل كانوا يعطون قدرا من الطعام ينفق عليهم من بيت المال الموقوف .

موكب العزيز في طرقات القاهرة :

كان الخليفة العزيز بالله يميل الى الترف والعظمة والابهة . وانعكست هذه الصفات على حياته العامة والخاصة ، في قصوره ومبانيه ، وفي بلاطه وحاشيته وفي مواكبه العامة في طرقات القاهرة .

وصف القلقشندي (١) موكب الخليفة وصفا شائقا فقد كان الموكب يتقدم وحوله الأساتذة والأمراء المطوقون ورجالات الدولة ركبانا ومشاة على حسب مراتبهم وحامل الدواة ، وكانت هذه الدواة مصنوعة من الذهب ومحلة بالمرجان ، تلف في منديل من الحرير الأبيض ، ويحملها أحد رجال الخليفة . وحول الخليفة حامل السيف ، وحامل الرمح ، وهو رمح محلى بالذهب واللؤلؤ ، وحامل الدركة المنسوبة الى حمزة عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى درقة كبيرة محلاة بالذهب والحرير وعليها أمير من أكابر الأمراء في الموكب . ومن وراء الخليفة يسير العساكر وبلغ عدد الفرسان أكثر من ثلاثة آلاف فارس .

وكانت توضع في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في الموكب قطعة ياقوت أحمر على شكل هلال تسمى (الحافر) زنتها أحد عشر

(١) صبح الأعشى : ج ٢ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

مثقالا . تحاط على خرقة وبدائرها قضيب زمرد ، وكانت تحمل عند رأس الفرس مذبتان عظيمتان كالنخلتين ملويتين .

وكان للخليفة الفاطمي الرايات البيضاء ، وعليها أهلة من ذهب في كل منها صور سبع من الديباج الأحمر ، ومنسوج على الرايات بعض الآيات القرآنية والعبارات الدينية مثل (نصر من الله وفتح قريب) .

وإذا بدأ سير الموكب ضرب رجل ببوق معوج الرأس من الذهب يقال له (الفريبة) وهو مخالف لصوت باقى الأبواق ، فتضرب البوقات الأخرى فى الموكب ، وتنشر الألوية ، وأعلها لواء محمد على رمحين طولين ملبسين بأنابيب من ذهب وبأعلها رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين ، ويخرجان لخروج المظلة الى أميرين معدين لحملهما .

أما المظلة فكانت قبة على هيئة خيمة على رأس عمود وكانت لها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة ، وكان حاملها من أكبر الأمراء . وكان لونها يشبه دواما لون ثياب الخليفة ، فمثلا فى صلاة العيد الأضحى تكون مظلة الخليفة حمراء تبعا لثوبه الأحمر الموشح وبيضاء فى صلاة عيد الفطر . لارتدائه البياض فى هذه المناسبة . وكانت تتخذ المظلة من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر .

يسير الخليفة فى الموكب وصاحب المظلة على يساره مجتهدا الا يزول ظلها عن الخليفة ، وفى المواكب المختصرة كان يخرج الخليفة بدون مظلة وكانت الطبول تقرع هى والصنوج طوال سير الموكب ، وتحمل النقارات على عشرين بغلا (١) .

وكان موكب صلاة الجمعة من أبرز مواكب الخليفة العزيز بالله فكان يركب فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان الى جوامع الحاكم

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٧٥ .

والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة ، وجامع الحاكم هو الذى أنشأه العزيز . وكان صاحب بيت المال فى صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على تأييد المسجد الذى يصلى الخليفة الجمعة فيه . فكان يوضع فى المقصورة ثلاث طنافس بعضها فوق بعض ، ويوضع فوق الجميع الحصرة وكان ينصب على جانبى المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين (١) .

وقبل وصول الخليفة بقليل كان قاضى القضاة يقف ويديه مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى كان يقف الخليفة تحتها وقت القاء الخطبة ، أما الخطبة فقد كان يصوغها أحد كتاب البلاط فى ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ويحفظ به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف ، ويتبع هؤلاء جمهور من الناس .

وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن الكريم حتى يصل الى قاعة الخطابة ، وهى قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حراس الخليفة ويظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان .

وحينئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة وحوله الوزير وجماعة من الحرس المدججين بالسلاح فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر - أما الخليفة فيستمر حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة فإذا أومأ اليه ، صعد فقبل يدي مولاه ورجليه ،

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١١ .

وزر السترين عليه ، وبذلك يكون المنبر والقبه كالهودج ، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر ..

وبعد الأذان يقدم قاضى القضاء وصاحب بيت المال ، فيتقدم الأول ويحل الستر ويبخر المكان ، ثم يغادران القاعة ويقبلان الدرج عند نزولهما . وكانت الخطبة التى يلقها الخليفة قصيرة .

نقل المقرئى عن المسيحى الذى حضر صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر فى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) فى عهد الخليفة العزيز بالله ، فقال انه اتخذ موقفه خلف العزيز وذكر العزيز بعد أن تلا آية إقرآنية نفسه وقومه بعبارة موجزة ثم قال : « رب اوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . ودعا بعد ذلك لوالده وجده ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وللخلفاء أسلافه ثم دعا العزيز لنفسه أخيرا فقال : « اللهم أنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسى خيرا ولا نفعا (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . ان انا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) » (١) .

ويختم الخليفة عبادة خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فاذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحل السترين ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ويقوم كبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

وبعد انتهاء الصلاة يخلو الجامع من الناس ويغادر الخليفة المسجد يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره . وحرسه الخاص من خلفه ويعود بموكبه الى قصره على الصورة التى شهدناها عند قدومه الى الجامع .

وفي أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التي يمر بها الخليفة في طريقه الى الجامع كما كان يصطف كثير من الناس على جانبي الطريق (١) .

ومن أبهى مواكب الخليفة العزيز بالله موكب في الاحتفال بجبر الخليج أو وفاء النيل . فكان الخليفة يخرج يحيط به آلاف من الفرسان يمتطون الخيول المطهمة الملمعة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بدياج مطرز باسم الخليفة . ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هودج مزركشة تقودها طائفة من جند الخليفة .

ويسير الجند في صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ، ويتبعهم عشرون ألفا من البربر من أبناء قبيلة كتامة وخمسة عشر ألفا من المغاربة ، وعشرون ألفا من المصامدة وهم أيضا من بربر شمال أفريقية . ويتبعهم عشرة آلاف من الأتراك ومثلهم من الفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ثم خمسة عشر ألفا من بدو الحجاز وثلاثون ألفا من السودان ، ثم يتبعهم الموظفون على اختلاف مراتبهم ، ثم الشعراء والعلماء والأمراء .

وفي آخر هذا الموكب يسير الخليفة العزيز بالله ، وحوله حرسه الخاص ، وإلى جانبه أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ويحف به الخصيان يطلقون البخور على جانبي الطريق . حتى إذا وصل إلى القسطة المقام عند فم الخليج سجد له الناس احتراما واجلالا .

وفي هذا السرادق يوضع للخليفة حشية عظيمة يجلس عليها ويوضع للوزير كرسي ويبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن الكريم ثم ينشد الشعراء قصائدهم . ثم يفادر الخليفة السرادق بصحبته الوزير

(١) المقريزي : خطط ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٦٨ .

الى منظره السكرة التى كانت تطل على الخليج ويبقى رجال الدولة فى السرادق ويقذف الخليفة المزارق فى سد النيل . وينطلق الناس يعملون فى هذا السد بمعاولهم فينسب الماء ويهرع الناس الى الزوارق فرحين مسرورين .

جولة فى القاهرة العزيز :

ولتسمح لنا ايها القارىء أن نصحبك الى القاهرة فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله ولنبدأ بأسوار القاهرة فقد أحيطت القاهرة بسور كبير ضم الخطط التى تكونت منها القاهرة التى كانت بمثابة حصن يتحصن فيه الفاطميون . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار على حين كان يعرف الجزء الواقع بخارجها بظاهر القاهرة وهو خطط وأحياء جديدة بدأ انشاؤها فى عصر العزيز بالله . وكان سور المدينة الغربى بعيد عن الخليج بنحو ثلاثين مترا .

أما أبواب القاهرة فهى أربعة : بابا زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح . ويتكون بابا زويلة من بايين متجاورين أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ولهذا سمى باب القوس . وقد مر منه الخليفة المعز لدين الله عند قدومه من بلاد المغرب فكان الناس يمرون منه تبركا . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه . ويذكر القلقشندى أن جوهر الصقلى سمى باب زويلة بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويلة احدى قبائل البربر البارزة التى قدمت معه من بلاد المغرب .

وهذا هو القصر الشرقى الكبير الذى بناه فاتح مصر جوهر الصقلى ليقم فيه الخليفة المعز لدين الله وهو القصر الذى عاش فيه الخليفة العزيز بالله عامين كولى للعهد وعاش به فى أول عهد خلافته حتى بنى القصر الغربى . وحول القصر الشرقى دور كثيرة للجند والموظفين والأتباع . وللقصر أبواب كثيرة ، وهى باب الذهب

وتعلوه منظره يشرف منها الخليفة فى الأعياد ، وباب البحر وباب الريح وباب الزمرد وباب العيد . وأمام القصر رحبة متسعة يقف فيها الجند فى يومى العيدين وتعرف برحبة العيد وبجواره دار الضيافة وتسمى بدار سعيد السعداء وباب قصر الشوك وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقابله الجامع الأزهر الى الجنوب الشرقى من القصر وباب الزعفران ، وباب الزهومة أى الباب الذى يشتم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر (١) .

أما القصر الغربى الذى أنشأه الخليفة العزيز بالله فيبدأ من حيث يوجد المارستان الى حارة برجوان . وكان له جناحان بارزان فى كلا الطرفين لكنه يمتد بين القصرين . أما المسافة بين القصر الغربى والحائط الغربى فكانت تحتلها حديقة كافور بما فيها من أكشاك مختلفة تطل على الخليج .

وهذا هو المقس الذى بدأ الخليفة المعز ببناؤه ونال اهتماما كبيرا من ابنه العزيز فقد بنى المعز حوضا فى المقس لى ترسو فيه السفن أكثر انخفاضا فى النهر من الأحواض السابقة فى الروضة ومصر ، وبالقرب من موقع الأزبكية الحالية . ولقد ظلت المقس ترسانة القاهرة وميناءها حتى ظهرت بولاق حينما غير النيل مجراه . وقد رأى ناصر خسرو فى عام ١٠٤٧ م بعض سفن المعز راسية هناك فى المقس وكان طول الواحدة يبلغ ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ أقدام (٢) .

واذا كانت القاهرة هى العاصمة السياسية ومركز الإدارة والحرب فقد كانت القسطة سوق القاهرة ومركز النشاط الاقتصادى وكانت دورها تتألف من خمس طبقات وتبدو من بعيد

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥٦ - ٥٧ تاريخ الدولة الفاطمية

ص ٥٣١ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢٩ .

كانها المعائر ويسكن الدار الوحيدة نحو مائتى نفس وكانت أسواقها في غاية النظافة والنظام وتفص بالدكاكين العامرة بمختلف السلع . ومن أشهر أسواقها القناديل . وكانت ترد الى الفسطاط أنواع كثيرة من التجارة العالمية .

العزير بالله في الأعياد والمواسم بالقاهرة :

استن الخليفة المعز لدين الله سنة الاحتفال بالأعياد والمواسم وكان يريد بهذه الاحتفالات جذب رعايا الدولة الفاطمية اليها ولذا شارك المعز الأقباط المصريين في الاحتفال بعيد (خميس العهد) وعيد (يوم الغطاس) وعيد الميلاد وغيرها . وقد نهج أبناؤه وأحفاده نهجه في ذلك . كما أهتم المعز بأعياد مصر القومية مثل عيد جبر الخليج . فقد سن المعز لخلفائه من بعده سنة التودد الى المصريين في ذلك اليوم فكان الفاطميون ينفقون الأموال الكثيرة للاحتفال به فتعطل دواوين الحكومة وتحتفل به الدولة احتفالا رسميا (١) .

وسار الخليفة العزير بالله على سنة أبيه المعز فكان يحتفل بمختلف الأعياد والمواسم في صورة اجتماعية بهيجة فيقيم الولائم الفخمة والأسمطة في قصور الخلافة وفي المساجد . وشهدت قاعة الذهب في القصر الشراقى الكبير الأسمطة الحافلة طوال شهر رمضان وأيام العيدين . وكان يدعى اليها قاضى القضاة وكبار الموظفين والقواد . وكان الخليفة العزير ينفق الأموال الطائلة مما يدل على عظم ثراء الدولة الفاطمية في عهده .

أهتم الخليفة العزير بالله بالاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية والاجتماعية . ومن هذه الاحتفالات الاحتفال بأول العام الهجرى فيخرج الخليفة في موكب رائع يصحبه وزيره ، ويلتف حوله حرسه الخاص ، وكانوا يسمون صبيان الموكب . فيمر الموكب بطرق القاهرة الكبرى حتى الجامع العتيق أى جامع عمرو بن العاص .

(١) المعز لدين الله ص ٢٨٦ .

وعند وصول العزيز بالله الى الجامع يستقبله الخطيب وهو واقف على مصطبة ويده مصحف ينسب خطه الى علي بن ابي طالب . فيتناول الخليفة المصحف من الخطيب ويقبله عدة مرات ويأمر صاحب الكيس بأن يعطيه ثلاثين دينارا فيأخذ الخطيب والمشرف على الجامع نصفها . والباقي يقسمه المؤذنون . وبعد الصلاة يعود الخليفة الى قصره وفي طريق عودته يعطى رئيس كل مسجد يمر به دينارا .

واهتم الخليفة العزيز بالله بالاحتفال بشهر رمضان المعظم وبعيدى الفطر والأضحى ومولد الرسول صلى الله عليه وسلم . فكانت تقام الأسمطة في قصور الخلافة وتوزع الانعامات والهبات وتزدان القاهرة بالزينات والأنوار .

ومن أعياد الفاطميين الاحتفال بمولد علي بن ابي طالب ومولد ابنه الحسن والحسين رضى الله عنهم ، ومولد فاطمة عليها السلام ، ومولد الخليفة ، وليلة أول رجب وليلة نصف رجب وليلة أول شعبان وليلة نصف شعبان وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وجبر الخليج ويوم النوروز ويوم الفطاس ويوم الميلاد وخميس العهد .

احتفل الخليفة العزيز بالله وغيره من الخلفاء بعيد غدیر خم . وقد بدأ الاحتفال بهذا العيد في عهد أبيه المعز وفي ذلك يقسول ابن زولاق : « في يوم ثمانية عشرة من ذى الحجة سنة اثنين وثلثمائة وهو عيد الغدير تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم للدعاء لانه يوم عيد لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عهد الى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب فيه واستخلفه فأعجب المعز ذلك من فعلهم . وكان هذا أول ما عمل بمصر » (١) .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٨٨ .

ووصف المسبحى الاحتفال بعيد الغدير : « اجتمع الناس بجامع القاهرة (أى الأزهر) والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعاً عظيماً أقاموا الى الظهر ثم خرجوا الى القصر فخرجت اليهم الجائزة . وبذلك كان اهتمام المعز بهذا اليوم كبيراً حتى أنه كان يخرج الى قنطرة المقدس ويعرض الأسطول ويعودّه ويباركه ويدعو له » .

وكان العزيز بالله يخرج فى عيد غدیرخم مع كبار رجال الدولة الى الايوان الكبير فى قصر الخلافة حيث يسبقه الوزير . ويجلس الخليفة فى الشباك ويتجه القاضى الى كرسى الدعوة ويشبه المنبر فيه تسع درجات فيأخذ مجلسه أمام الشهود والأمراء والأجناد والشيعة وغيرهم . ويجلس الوزير وحاشيته على مقربة من كرسى الدعوة ثم يتلو قاضى القضاة قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب يوم غدیرخم فاذا فرغ قاضى القضاة نزل عن الكرسى وصلى بالحاضرين ركعتين . ثم ينهض الوزير ويسير الى الشباك ليقدم فروض الولاء من جديد للخليفة ثم ينفض الحاضرون بعد تبادل التهاني . ثم يتوجه الوزير لذبح الأضاحى على النحو الذى كان متبعاً فى عيد النحر . ثم يقام سماع فخم كسماط أول عیدی الفطر والأضحى وتوزع الأطعمة والكسب وتعمل الدولة على تزويج الأيتام (١) .

ومن الأعياد الفاطمية فى عهد العزيز بالله الاحتفال بيوم عاشوراء فى العاشر من شهر المحرم فكان المسلمون يصومون فى هذا اليوم ويظل الشيعة فى بكاء وحزن طوال اليوم وتتعطل الأسواق ويخرج المنشدون ويسير الناس الى جامع عمرو بن العاص ويخرجون الى الطرقات بعد الصلاة وهم ينوحون ويبكون . ويحتجب الخليفة فى هذا اليوم ويرتدى كبار رجال الدولة ملابس الحداد وتفرش دهايز قصر الخليفة بالحصر بدلاً من البسط . ويقدم سماع الحزن

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٣٩٠ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥٣ .

ويتألف من خبز الشعير والعدس والملحات والمخللات والجبن والألبان وعسل النحل ويحضر الخليفة هذا السماط ويجلس على كرسي من الجريد بدون مخدة مثلثا هو وجميع رجال الحاشية وينحرون الأبل والبقر والغنم ويوزعون لحومها على الفقراء .

ومن الاحتفالات الفاطمية ، الاحتفال بليالي الوقود وهي الليالي التي تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الشيعة يصومون في هذه الأيام ويحتفلون بها احتفالهم بشهر رمضان وتضاء المساجد بأنوار ساطعة ويسير موكب عظيم يتقدمه قاضي القضاة نائبا عن الخليفة ممتطيا جوادا يحيط به ثلاثة من رجال الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ومؤذنون المساجد المختلفة ، يحمدون الله ويدعون للخليفة . وكان الشهود يمتطون الجياد أيضا وبأيديهم الشموع المضاءة ويمضي الموكب في شوارع القاهرة الرئيسية حتى يصل الى باب الزمرد وهناك يكون الخليفة جالسا في منظرته التي تسطع بالأنوار . وبعد توالى الخطباء تفتح نوافذ المنطرة حتى يرى الشعب وجه الخليفة وسط هذه الأنوار الساطعة ويصيح أحد رجال الخليفة : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام . ويفادر الموكب قصر الخليفة الى قصر الوزير حيث تلقى الخطب تكريما له (١) .

واهتمت حكومة العزيز بالله بتنظيم هذه الاحتفالات فكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام وكان على الواليين أن يصحبا قاضي القضاة في موكبه ويطيعا أمره حتى يأمر به . وكانت الأسواق تسطع بالأنوار وتكثر فيها الحلوى سدا لحاجة المشتريين (٢) .

استن الخليفة المعز لدين الله سنة اقامة الولائم في الأعياد والمواسم وسار العزيز بالله على سنة أبيه وكانت هذه الولائم تقام

(١) القريري : خطط ج ١ ص ٤٦٦ القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣

ص ٥٠١ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥٩ .

في بعض المساجد أو في القصر أو في دار الوزير . ففي القصر كانت تقام في قاعة الذهب وتستمر الولايم طوال شهر رمضان وفي أيام العيدين .

وفي عيد الأضحى كان الخليفة العزيز بالله بعد أن ينتهى من صلاة العيد يركب الى المذبح حيث يكون الوزير وقاضى القضاة وغيرهم من رجال الدولة في انتظار وصوله ويقوم الخليفة بيده بذب بعض الحيوانات ويتكرر ذلك في اليومين الثانى والثالث من أيام عيد الأضحى .

وفي عيد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر الخليفة العزيز بالله بصنع أكثر من عشرين قنطارا من الحلوى توزع على ثلاثمائة خوان وتوزع في الجامع الأزهر . وفي الاحتفال بجبر الخليج (وفاء النيل) يقام سماع عظيم في سرادق كبير على شاطئ النيل قرب منطرة السكرة التى كان الخليفة يجلس فيها ويدعو الخليفة الناس الى هذا السماع .

وصف المقرئى (١) احتفال الخليفة العزيز بالله بالعيد فقال : « وفي يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب والديباج المحلى والعسكر في زيه : من الأتراك والديلم والعزيرية والأخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثلل والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجواهر والسروج بالعنبر وبين يديه الفيلة وعليها الرجالة بالسلاح وخرج بالمظلة الثقيلة بالجواهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف » .

حكومة العزيز بالله

تميزت حكومة العزيز بالله بأنها كانت حكومة رشيدة عادلة منظمة ، بل كانت أفضل حكومات الخلفاء الفاطميين جميعا . وأن كان أبوه المعز لدين الله قد وضع أسس وقواعد السياسة والإدارة إلا أنه لم يحكم في مصر سوى عامين ، ولذا فقد أكمل العزيز بالله النظم الحكومية وتبلورت وتطورت في عهده حتى ظهرت في صورتها الكاملة الناضجة .

وضع الخليفة المعز لدين الله أسس السياسة التي سار عليه ابنه وخلفه العزيز بالله فقد حدد واجبات الخليفة بحيث تدور كلها حول اصلاح امر الرعية وحمايتهم من أعدائهم فقال : « للناس شغل بدنياهم ، وما يتلذذون به منها ، وشغلنا اقامة أودهم وصلاح أحوالهم ، والنظر فيما يعود عليهم ، ويحمي حماهم ، ويدفع عن بيضتهم ، ويحقن دماءهم ، ويخصن حريمهم وأموالهم ، ويكف أيدي المتطاولين ، بذلك نقطع ليلنا ونهارنا . . والله المستعان على ما قلناه من أمورهم وافترضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب اليه في اصلاحهم وهدايتهم الى ما فيه حظهم ونجاتهم في دنياهم واخراهم » (١) .

نظام الخلافة في عهد العزيز بالله :

كان الخليفة العزيز بالله باعتباره خليفة علويا فاطميا تولى الامامة بعد أبيه بنص منه يجمع في يده كل السلطات . فكان المهيمن على جميع أعمال الدولة ، ويعين الولاة في الأقاليم ، ويرسم لهم

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

طريق الحكم ويراقب سياستهم . كما كان العزيز بالله القائد الأعلى للجيش وقد خرج بنفسه على رأس جيشه لقتال القرامطة وأفتكين التركي في بلاد الشام . وكثيرا ما كان العزيز بالله يجلس للنظر في المظالم ، وينصف المظلومين ولم يسمح لوزرائه بالاستبداد بالسلطة فتولى الوزير منصب الوساطة وظل الخليفة العزيز مصدر السلطات .

والخلافة الفاطمية هي الخلافة الشيعية الكبرى الوحيدة في الاسلام ، تأسست في تونس في بلاد المغرب (٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م) لتنافس الزعامة الدينية للعالم الاسلامي التي كان يمثلها العباسيون السنيون في بغداد . ثم انتقلت الخلافة الفاطمية الى مصر في عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله سنة ٣٦٢ هـ .

وكان قيام الخلافة الفاطمية نتيجة لذلك الصراع العنيف بين السنيين والشيعة فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين ، لأنهم أولاد علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . ولذا فالعلويون هم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة دون الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ويرون أن الخلافة ليست مسألة عامة يناط أمرها الى عامة الناس فيختارون امامهم بل الامامة بالنص ، وقد أوصى الرسول بتولى علي بن أبي طالب الامامة بعده . وترى الشيعة أن أحفاد علي بن أبي طالب قد ورثوا مرتبته في رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها وفي العلوم والصفات الروحية التي اختص بها ، وكل امام وصى لسلفه الذي عينه باقراره الصريح . وتعد الشيعة كل دستور غير هذا للخلافة اغتصابا وقهرا . وترى الشيعة ايضا أن الأئمة معصومون عن الخطأ ، ويضفون عليهم صفات التقديس (١) .

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٢١٠ .

وظل العلويون يناضلون في سبيل الزعامة والخلافة ، بالسيف تارة وبالدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب ، التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق . وتحدث (آدم متز) (١) عن الصراع بين العباسيين والفاطميين ، فذكر أن الخليفة الفاطمي وقف من الخليفة العباسي موقف المنافس العنيد ، وأن نفوذه انتشر في كثير من البلاد ، ودعى له على المنابر في المغرب ومصر ، وفي بلاد اليمن والشام .

قلدت الدولة الفاطمية الدولة العباسية في نظام حكومتها وسائر شؤونها ، إلا فيما يتعلق منها بالدين ، فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من إثار العلويين وتقديهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه ، فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخاري ، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير ابن كلس يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء ، وجعله مرجع القضاء في الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه في جامع عمرو . وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء ، وأجلسوا أناسا في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين (٢) .

قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الامام وعصمته ولذا خلع الشيعة على خلفائهم من صفات التقديس مالم يوصف به خلفاء بني العباس . ولكي يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة

(١) متز : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ ج ١ ص ٤ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ٢٣٢ .

من التقديس ، عمدوا الى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الائمة . وكان من اثر هذه الجهود ان راجت فكرة تقديس الائمة فى كثير من أرجاء العالم الاسلامى كمصر واليمن وفارس والهند ، بل انتشرت بين الأمويين السنيين فى الأندلس (١) .

لقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد الأكاسرة الساسانيين ، والتى أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولا عند الخلفاء الفاطميين ، وأصبح الامام فى نظر الناس ، ظل الله فى الأرض ، كما أصبح شخصا مقدسا ، حتى لقد تعرض الناس للموت اذا أظهروا سخطا أو تدمرا ، أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه ، لأنها صادرة من الله عز وجل الذى أملاها على الامام المعلم ، الذى تلقى علمه من الله عن طريق الوحي .

وأصبح المعز لدين الله عند قدومه الى مصر على الامامة لونا من القدسية ، فنجدته ينوه بأقواله وأمثاله وكتبه ومقدرة امامته الروحية ، وكونها امامة الدنيا والدين معا ، فأصبح ينحنى أمامه ، هو وغيره ممن أتى بعده من الخلفاء الفاطميين ، الداخلى عليهم والخارج من حضرته ، ويقبل الناس الأرض بين أيديهم ، وتلثم الرعية أيديهم وأرجلهم ، واذا اقترب أحد منهم قبل أرديتهم ، وهو شرف لا يتاله الا وجوه القوم والدولة .

وأحيط شخص الخليفة الفاطمى بالرهبة والقداسة ، وتيقن للشعب أن لخليفته قدرة خارقة للعادة ، لأن الله اصطفاه من شجرة النبوة الباسقة ليحكم بين الناس بروح من عنده ، فعليهم السمع والطاعة له ، لأن حكمه هو الحق والعدل الملهم له من الله سبحانه وتعالى ، فللامام عند الفاطميين صلة روحية بالله من جنس التى للأنبياء والرسل (٢) .

(١) دوزى : المسلمون فى اسبانيا ص ٤٠٦ .

(٢) مشرفة : نظام الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٥٨ .

ويلاحظ المؤرخ (براون) أن نظرية الحق الملكي المقدس لم تكن في دولة من الدول أثبت وأكثر ذيوعا منها في فارس في عهد آل ساسان . غير أن هذه النظرية كانت بمصر في زمن أعرق في القدم من عصر آل ساسان ، في عهد الفراعنة الذين ادعوا لأنفسهم كل صفات الله ، وأوضح مثل لذلك هو فرعون موسى عليه السلام .

أضفى الخليفة المعز لدين الله على نفسه كثيرا من صفات التقديس ، تظهر في رسالته التي وجهها الى الحسن الأعصم القرمطي ، فقال : « أنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشيعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابجه البيئات ، وبدائعه المنشئات ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وأنا لكما قال الله سبحانه وتعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا) ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، أن الله بكل شيء عليم) »

وتميزت الخلافة الفاطمية بالعظمة والأبهة التي كانت تتمثل في الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفي توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بوفاء النيل ، وبعيدى الفطر والأضحى ، وفي جلوس الخليفة بقاعة الذهب ، وكانت الشيعة تركع عند رؤية الخليفة ، وتعتبر تقبيل رداءه شرفا عظيما .

تلقب الخلفاء الفاطميون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمي أو العلوي ، وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة الى الاسماعيلية لقب امام وصاحب الزمان وسلطان والشريف القاضي ، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة للخليفة في صلاة الجمعة « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته » . وكان السنيون يطلقون على الخلفاء الفاطميين (العبيدين) نسبة الى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم

(العلويون) نسبة الى على بن ابي طالب ، و (الفاطميون) نسبة الى فاطمة الزهراء . كما يطلق عليهم أيضا (السلاطين) (١) .

وكان رعايا الخليفة الفاطمي يخاطبونه بكثير من الأسماء مثل : سيدنا ، ومولانا ، وسيف الاسلام ، وناصر الامام ، وكافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، وكاشف الغمة ، وغيث الأنام ، وغير ذلك من الألقاب .

وحرص الخلفاء الفاطميون على أن يقرنوا اسم الله سبحانه وتعالى بأسمائهم ، مثل المعز لدين الله ، واسمه الأصلي (معد أبو تميم) ، ومثل العزيز بالله واسمه الأصلي (نزار أبو منصور) .

كان يصحب اعتلاء الخليفة الفاطمي العرش عدة مظاهر غاية في الأبهة والعظمة فيجتمع الأمراء والقضاة ورجال الدين وكبار رجال الدولة . فاذا استوى الخليفة على العرش أصبح من الصعب إيجاد حد فاصل بين ما يفصل فيه من الأمور الدينية ، أو المسائل السياسية والإدارية ، لأنه كان يجمع في يده السلطتين الروحية والزمنية ، ولذا كانت وظائفه متعددة : فهو رئيس الدولة الأعلى وذاته مصونة لا تمس ، ورئيس الحكومة وزعيم الأمراء والقائدين الأعلى للجيش ، وله النفوذ الفعلي في تصريف أمور الدولة والتعرض لشئونها ، فله الولاية والعزل واقتطاع الاقطاعات وغير ذلك .

أما أهم مظاهر سيادة الخليفة فكان ذكر اسمه في الخطبة على المنابر ونقشها على السكة . وكان ذكر اسمه في الخطبة هو المظهر الذى يدل على أنه كان له اعتبار روحى وكيان دينى ، وهو الذى يحث على الجهاد فى سبيل الله والدين . وهو المهيمن على شئون موظفى دولته . وله أن يتولى القضاء بنفسه وأن ينظر فى المظالم .

ويصف مؤرخ عربى الحكومة الفاطمية بأنها حكومة بيروقراطية ، فقد كان الخليفة يعتمد فى إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٧ .

الاداريين ، ويمنح كلا منهم حرية التصرف في الأمور التي يباشرها بعد مراقبة لهم ومحاسبتهم أمامه على أعمالهم (١) .

ويرى المؤرخ (آدم متر) (٢) نفس الرأي ، وهو يشيد بسياسة الخلفاء الفاطميين الحازمة واستقرار الأوضاع السياسية والإدارية واتباع نظام اللامركزية ، ثم يقول : ومن أمثلة ذلك أن والي الشام كتب مرة إلى المعز لدين الله مباشرة وتخطى من دونه ، فمنع الخليفة من ذلك ، وأعاد الكتاب إلى والي من غير أن تفض أختامه .

نظام ولاية العهد :

سار الفاطميون على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة الفاطمي إذا أدرك قرب وفاته عهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكان الفاطميون ينظرون إلى الخليفة الفاطمي باعتباره أمما يرث أباه عن طريق التعيين بالنص وانه لابد أن يعين الخليفة أو الامام ولي عهده قبل وفاته حتى لا يخلو العالم من امام .

سن الخليفة الفاطمي القائم في نظام ولاية العهد سنة طيبة سار عليها خلفاؤه من بعده ، ففرض على كل من الخلفاء الفاطميين أن يعين من يخلفه قبل أن يدفن سلفه بيده ، وأن يشهد على هذا التعيين أخلص الناس إليه . وكان تعيين الامام بالنص أمر مسلم به عند الاسماعيلية . فقد قال الخليفة الفاطمي المنصور لابنه المعز حين عهد إليه : « والله ما أنا آثرتك بما آثرتك به ، بل الله آثرك واختصك وأعطاك واجتباك .. » (٣) .

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ص ٦٦ .

(٢) متر : الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ ج ١ ص ٢٤ .

(٣) النعمان : المجالس والمسائر ج ١ ص ١٥٢ .

ويقضى نظام الوراثة في المذهب الاسماعيلي ان تنتقل الامامة من الاب الى الابن عن طريق التعيين ، ولم يتبع الفاطميون ما اتبعه الأمويون والعباسيون من تولية العهد لأكثر من واحد .

وكان لولاية العهد ميزاتها اذا كان ولي العهد رشيدا ناضجا كفوا لتولى هذه المهمة الخطيرة ، وكان الخلفاء الفاطميون الأوائل من أعظم الخلفاء المسلمين فقد كان القائم بن عبيد الله المهدي قبل أن يتولى الخلافة شجاعا ملما بالسياسة وفنون الحرب ، وقاد الجيوش لمحاولة فتح مصر في حياة أبيه ، وأخمد الثورات التي قامت ضد الدولة الفاطمية . كما كان العزيز بالله ساعد أبيه المعز الأيمن قبل أن يتولى العزيز الخلافة .

ويمتدح (آدم متر) (١) نظام ولاية العهد في العصر الفاطمي فيقول : نادى الفاطميون بأن الامامة والافضلية صفة خاصة تنتقل من الوالد الى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ، ويضاف الى هذا هدوء السياسة الحازمة ، وطمانينتها في عهدهم .

وزراء العزيز بالله :

لم تظهر الوزارة في مصر بمعناها الحقيقي ومظاهرها الرسمية ، أى أن يكون للوزير رتبة خاصة ، ولوظيفته قواعد معينة ، الا في عهد الأخشيدين (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) حيث وليها الوزير جعفر ابن الفرات . وعند فتح مصر ، لم يطلق جوهر على ابن الفرات لقب (الوزير) وقال : « ما كان وزير خليفة » ، فقد كانت هذه الوظيفة غير مألوفة عند الفاطميين في أول عهد دولتهم ، فقد كان الخلفاء الفاطميون المهدي والقائم والمنصور يقومون بشئون الدولة بأنفسهم دون الاعتماد على وزراء ، وان استعانوا بعدد من كبار الموظفين مثل اقاضي القضاء والحاجب وغيرهم .

(١) متر : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ ج ١ ص ٢٤ .

ويذكر المقرئى أن جوهر الصقلى لم يعترف بابن الفرات وزيراً ، بل ولى أحد رجاله أمر مراقبة ابن الفرات مراقبة دقيقة فيكون دائماً موضع نظره ، ولكن جوهرًا فى نفس الوقت اضطر لأن يبقى لابن الفرات ما كان يتمتع به من سلطان حتى لا يغضب المصريين السنين . ورفض ابن الفرات أن يستقبل الخليفة المعز لدين الله عند قدومه الى مصر ، لولا أن الح عليه كثير من وجوه المصريين السنيين حتى لا يثير غضب المعز وقد تم له فتح مصر . وعرض المعز على ابن الفرات أن يستمر فى القيام بأعمال الوزارة ، ولكنه اعتذر ، وبذلك انتهت وزارة ابن الفرات بقدوم المعز الى مصر (١) .

ولذا كان الخليفة العزيز بالله أول من اتخذ الوزراء بتعيينه يعقوب بن كلس وزيراً سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٨ م) . فقد كان الخلفاء الفاطميون الأوائل يعتمدون على حجابهم مثلما كان متبعاً فى الدولة الأموية فى بلاد الأندلس . حتى اذا اتسعت الدولة الفاطمية ، وأراد الخلفاء الفاطميون بمصر أن يصفوا عليها مظاهر العظمة والابهة ، اتبعوا نظام الوزارة المعروف فى الدولة العباسية .

وكان يعقوب بن كلس يهودياً فى أول حياته ، نشأ فى مدينة بغداد ، ثم رحل مع أبيه الى بلاد الشام ، ثم الى مصر فى سنة ٣٣١ هـ . ونال ثقة كافور الأخشيدي حاكم مصر فى عصر الدولة الأخشيديّة ، فعينه فى ديوانه الخاص . وازداد نفوذه حتى أن « كافور » أصدر أوامره الى رؤساء الدواوين الحكومية الا يصرفوا شيئاً من المال الا بتوقيع ابن كلس .

وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ أعلن ابن كلس اعتناقه الاسلام ، وصلى فى الجامع ، فزاد تقريب كافور له ، وحافظ ابن كلس على أداء الصلاة وتلاوة القرآن الكريم ، ورتب لنفسه شيخاً من أهل العلم المتفهمين فى الدراسات الدينية ، كما درس كتب النحو (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٦١ .

حتى اذا مات كافور ، بدأ العداء بين ابن الفرات وابن كلس ،
والقاه ابن الفرات في السجن ، حتى شفع فيه كثير من الناس ، وبذل
ابن كلس مبلغا كبيرا من المال مقابل الافراج عنه . ثم رحل ابن كلس
متخفيا الى بلاد المغرب . وفي طريقه اليها ، التقى بجيش جوهر
الصقلى القادم لفتح مصر ، فصحبه وعاد ثانية الى القطر المصرى .
حتى اذا قدم الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة ، دخل ابن كلس
في خدمته وتولى بعض الشؤون الادارية والمالية .

ولما تولى العزيز بالله الخلافة ، برز يعقوب بن كلس ، وأصبح
الناس يطلقون عليه اسم (الوزير الأجل) ، وأصبح جميع مكاتبات
الدولة تحمل اسمه ، فكان يبدؤها بعبارة : « من يعقوب بن يوسف
وزير أمير المؤمنين الى فلان » . وأصبح ابن كلس أول وزراء الدول
الاسلامية الذين كانوا من أهل الذمة واعتنقوا الاسلام . كما يعتبر
ايضا أول أرباب الأقلام الذين تولوا الوزارة .

امتدح المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى الوزير يعقوب
ابن كلس فقال : أما ادارة الإمبراطورية الفاطمية في الداخل فالفضل
في انشائها راجع الى يعقوب بن كلس الذى كان وزيرا للعزيز ،
وكانت ادارته الماهرة هى التى بنيت عليها قواعد الرخاء الاقتصادى
الذى شهدته وادى النيل في عهد الفاطميين الأول (١) .

وكان ابن كلس عالما ، يهتم بالعلم وبتشجيع العلماء ، وكانت
مكتبته الخاصة تنافس مكتبة الخليفة العزيز في عدد كتبها . كما
كان انسانا ، فقد أنشأ في قصره مستشفى به عدد كاف من الأطباء
يفحصون المرضى ويقدمون لهم الدواء بدون مقابل .

وحرص ابن كلس على الجلوس للمظالم في كل يوم بعد صلاة
الصبح ، فيتقدم له الجميع على السواء بمظالمهم فينظر فيها .
واتخذ في قصره عدة دواوين ، بعضها لشئون الجيش أو المسائل

المالية أو سجلات الدولة ، وتولى كل دواوين هيئة إدارية من عديد من الموظفين .

تعرض ابن كلس لمحنة ، فقد غضب عليه الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) ، فعزله من الوزارة ، واعتقله في القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق سراحه ، وأعادته الى منصبه مرة أخرى ، ووهبه الخليفة خمسمائة غلام ، وألفا من الموالى المغاربة (١) .

وسكن ابن كلس قصرا فخما يضاهاى قصر الخليفة العزيز في عظمته وأبهته ، واتخذ فيه مطابخ خاصة له ولضيوفه العديدين ، وأخرى لغلمانه وحاشيته . وكان يمد في كل يوم سمطا كبيرا للعلماء والضيوف وكبار الموظفين والأتباع والحجاب (٢) . كما اهتم ابن كلس بتحسين قصره ، فأصبح يحرسه عدد كبير من الجند ، وأمدهم بالسلاح والعدد والمؤن . وانتشرت حول القصر دور أتباعه وحاشيته . وقلد ابن كلس الخليفة العزيز بالله في اتخاذ الحجاب الذين ارتدوا أزهى الملابس الحريرية ، وتقلدوا السيوف المطعمة بالجواهر ، كما احتذى الخليفة في إقامة الولائم في قصره للخاصة ، كما أقام ولائم أخرى لعامة الناس وفقرائهم . وكان في قصر ابن كلس ثمان غرف معدة دائما لاستقبال الضيوف الأجانب . واتخذ كمولاه العزيز عددا من الضباط منح كلا منهم رتبة القائد ، فكانوا يصحبونه في غدواته وروحاته ، ومع هؤلاء القواد جماعة من الموالى أطلق على كل منهم لقب القائد أيضا .

ومن المهام والواجبات التى عهد بها الخليفة العزيز الى وزيره ابن كلس ، الشؤون المالية ، وموازنة الإيرادات والمصروفات ، وفرض الضرائب أو إسقاطها ، والإشراف على دواوين الحكومة . وكان ابن كلس يلزم العزيز في الحفلات الرسمية أو في الصلاة ، وأخذ

(١) القرىزى : خطط ج ٢ ص ٦ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤١ .

البيعة لولى العهد . ونال ابن كلس ثقة العزيز وتقديره ، وكثيرا ما خلع العزيز عليه ثيابه ، وأمر الناس أن تترجل له ، وتوالت هدايا العزيز على وزيره ، من الملابس والأطعمة . وأظهر ابن كلس تفوقا واضحا في ادارة وحكم الدولة الفاطمية ، مما أدى الى انتشار الرخاء وال عمران ، ورقى الحضارة .

مرض يعقوب بن كلس مرضه الأخير ، وركب الخليفة العزيز بالله ليغوده في قصره ، وقال له : « وددت انك تباع فأبتاعك بملكى وولدى » . ولما توفي ابن كلس في الخامس من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) اشترك الخليفة في جنازته بغير مظلة ، وصلى عليه ، وقام بدفنه في قبره بيده ، وكان دفنه في قبة بدار الخليفة في مقبرة كان الخليفة قد بناها لنفسه ، وعطل دواوين الحكومة ١٨ يوما .

وبعد وفاة ابن كلس ، عهد الخليفة العزيز بالمسائل المالية الى عيسى بن نسطورس ، ثم رفعه الى منصب الوساطة .

ومن المعروف أن نظام الوزارة ينقسم الى نوعين ، تحدث عنهما الماوردى (١) باسهاب ، وهما : وزارة تنفيذ ، وزارة تفويض . وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول وزارة تنفيذ ، بينما كانت في العصر الثانى وزارة تفويض . فقد استأثر الخلفاء الفاطميون الأولون ، مثل المعز والعزيز ، بجميع السلطات ، اذ كانوا على نصيب كبير من القوة والجدارة . وكان الوزراء ينظرون في العصر الأول في شئون الجيش والادارة والاقتصاد والضرائب ، وتولية رؤساء الدواوين ، كما كانوا يجلسون للمظالم .

أما في العصر الفاطمي الثانى ، فقد أصبحت الوزارة منذ عهد الخليفة المستنصر حفيد العزيز وزارة تفويض ، فاستبد الوزراء بالسلطة دون الخلفاء الفاطميين ، وبدأ بدر الجمالى عصر الوزراء

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٦ وما بعدها .

العظام ، فقد جاء في مرسوم تولية بدر الجمالي الوزارة : « وقد قللك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره ... » (١) واتخذ هؤلاء الوزراء العظام عدة القاب منها : أمير الجيوش ، وكافل قضاة المسلمين ، وهادى دمساة المؤمنين ، ثم اتخذوا لقب الملك (٢) .

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس ، وتحولت الى ما يسمى (الوساطة) خشية ازدياد نفوذ الوزراء . ففي أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى خلف أباه العزيز ، عزل عيسى ابن نسطورس ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين المغاربة الوساطة وتلقب أمين الدولة (٣) .

النظم الادارية والحكومية في عصر العزيز بالله :

اهتم الخليفة العزيز بالله بالحكومة الفاطمية ، ولم يترك شيئا كثيرا من النفوذ لرجال دولته ومساعديه ، حتى لا يستبدوا بالأمور دونه ، كما فعل البويهيون مع العباسيين ، كما انه لم يهمل شئون دولته ، وينغمس في العبث والمجون ، كغيره من الخلفاء ، بل كان يتولى كل شئون الدولة بنفسه ، ويستعين بأقـدر الموظفين وأخلصهم ، في الشئون الحكومية والادارية .

واهتم العزيز بالله أيضا بالنظام الادارى ، واتبع سنة أبيه المعز في اختيار أمرائه وعماله من بين أكفأ الرجال وأخلصهم للدولة ومذهبها . ولم يتبع مبدا الوراثية في تعيين الموظفين ، بل كانت الكفاية والاخلاص في مقدمة أسس اختيارهم . كانت الدولة الفاطمية في عصر الخليفة العزيز بالله مقسمة من الناحية الادارية الى ثلاثة أقطار كبرى وهى : البلاد المصرية

(١) القرىزى : خطط ج ١ ص ٤٤ .

(٢) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٢١٢ .

(٣) جمال سرور ، الدولة الفاطمية ص ١٤٢ .

وفيهما القاهرة مركز الخلافة الفاطمية ، ثم بلاد الشام وفلسطين وينوب عن الخليفة نواب يحكمونها ، ثم أفريقية ويحكمها ولاية باسم الخليفة . أما بلاد الحجاز والحرمان فكانت تابعة للخليفة الفاطمي اسما ، فكان يدعى للخليفة من فوق منابرهما ، لكنها كانت مستقلة اداريا .

أما القطر المصري في عهد العزيز بالله ، فكان مقسما الى أقسام ادارية حتى يتيسر حكمها ، فكان كل عمل (اقليم) ينقسم الى كور (مثل المراكز اليوم) ، وكل كورة تشتمل على عدة قرى ، ولكل قرية زمام أطيان خاص بها ، وعلى كل عمل أو اقليم رئيس (يشبه المحافظ اليوم) ، وعلى كل كورة نائب رئيس (مثل المأمور اليوم) ، وعلى كل قرية زعيم (مثل العمدة اليوم) .

وكان والى الاقليم يشرف على اقليمه ويعمل على استتباب الأمن به ، فيحافظ على أموال الناس وأرواحهم ، ويبعث الطمأنينة والنظام فيه ، وينفذ ما يصدره الخليفة وأعوانه اليه من أوامر ، وكان عليه أن يقيم في عاصمة الكورة . فكانت الجيزة عاصمة الجيزة ، والبهنسا عاصمة البهنساوية ، والفيوم عاصمة الفيومية ، ودمنهوور عاصمة البحيرة ، والمحلة عاصمة الغربية ، وأبيار عاصمة كورة جزيرة بنى نصر (١) .

وانقسمت مصر في عصر الخليفة العزيز بالله الى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة هي : ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد ، وولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضي الواقعة شرقي فرع دمياط ، وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط من الشمال الى الجنوب . أما الولاية الرابعة فهي ولاية الاسكندرية ، ويضاف اليها البحيرة . وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاية هذه الأقاليم الأربعة الحرية في تعيين

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ص ١٢١ .

العمال على المدن والنواحي والقرى الداخلة في نطاق ولايته ، كما أجازت لهم العناية بمرافق اقليمهم دون الرجوع اليها (١) .

تحدث القلقشندي (٢) عن أبرز الولاة الفاطميين فقال : ان والى القاهرة كان في مقدمتهم ومرتبته خمسون ديناراً ، و يليه والى القسطنطين وله نفس المرتب ، وكان لكل منهما مكان خاص في موكب الخليفة . وكان والى قوص يحكم جميع الصعيد ، أما والى الشرقية فكانت ولايته دون ولاية قوص ، ويحكم أعمال بلبيس و قليوب وأشمون . وكان والى الغربية أقل مرتبة من والى الشرقية ويحكم أعمال المحلة ومنوف وأبيار . أما والى الاسكندرية فكان أقل مرتبة من والى الغربية ويحكم أعمال البحيرة كلها .

وعلى الرغم من أن الخليفة العزيز بالله قد منح ولاته وأمراءه شيئاً من الحرية إلا أنه كان يراقبهم ويثبت جواسيسه حولهم لينبؤوه بأخبارهم ، كما كان يعين كثيراً من عمال المدن بنفسه ، ويتصل بهم مباشرة أو عن طريق حكام الولايات الكبرى . وكان العزيز يعين بجانب الولاة جماعة يثق بهم ليكونوا عيوناً على الولاة ، ومن هؤلاء الجبابة وأصحاب الخراج .

أما الإدارات الرئيسية في الدولة الفاطمية في عصر العزيز بالله ، فكانت متعددة ، يشرف كل منها على ناحية من نواحي الإدارة العامة ، كما اتخذ جوهر الصقلي بقصر الخليفة الفاطمي المعز عدة خزائن ، كذلك رتب به أيضاً الدواوين . فلما قدم مولاه المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره بالقاهرة أبقي دواوين مملكته كما وضعها جوهر .

ولما تولى الخليفة العزيز بالله ، قلد الوزارة ليعقوب بن كلس ، وقام الوزير بنقل الدواوين الى داره ، فأصبحت كل دواوين الدولة

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ١٦١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٤ - ٤٨٨ .

في قصره ، واحتشد القصر بالحجاب والكتاب وكبار الموظفين فلما مات ابن كلس في ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ نقل الخليفة العزيز الدواوين من قصر وزيره الى قصر الخليفة ، وبذلك استمرت هذه الدواوين في قصر الخلافة كما كانت في عهد الخليفة المعز لدين الله . حتى اذا تولى الحاكم بأمر الله الخلافة نقل أبو الفتح المسعود ابن طاهر الوزان ، الذي تقلد في ذى الحجة سنة ٤٠٩ هـ (١٨٠م) الوساطة ، جميع الدواوين الى داره (١) .

وأشهر الدواوين التي كانت في قصر ابن كلس في عصر الخليفة العزيز بالله ديوان العريضة ، وينظر في الأمور التي تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالحرص وشئون الحاشية . أما الدواوين الأخرى ، فكان بعضها يتولى شئون الجيش ، أو المسائل المالية ، أو شئون الكتاب ، والمسجلات ، وبعضها يتولى شئون الخراج ، ولكل ديوان هيئة من الموظفين .

ومن هذه الدواوين أيضا ، ديوان الشام ، وديوان الحجاز ، وقد تولاهما في عصر الخليفة العزيز بالله أبو طاهر النحوي الذي كان يعرف بالكتاب ، وكانت مهمته ابلاغ شكاوى الرعية الى الخليفة . وكذلك ديوان الخاصة للخليفة ، وقد تولاه عيسى ابن نسطورس (٢) .

وكانت هذه الدواوين تعطل في يوم الجمعة وهو يوم العطلة الرسمية ، وهو ما كان متبعاً أيضاً في العصر العباسي . كما كانت الدواوين تعطل أياها عند وفاة عظيم من عظماء الدولة ، فقد حزن الخليفة العزيز بالله كما ذكرنا على وفاة وزيره ابن كلس ، وأغلق الدواوين ١٨ يوماً حداًداً على وفاته .

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ص ١٢٤ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٤ .

ومن أبرز الدواوين ديوان الانشاء ، ودواوين الادارة المالية التي تقوم بحماية الأموال وانفاقها ، ودواوين الادارة المحلية التي تحكم الولايات . وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها الى عدة دواوين فرعية لكل منها مهمة خاصة . وكان ديوان الانشاء من أهم دواوين الادارة في عهد الخليفة العزيز بالله وازدادت أهمية هذا الديوان عما كان عليه في عهد الطولونيين والاحشيديين ، فقد أصبحت مصر مركزا للإمبراطورية الفاطمية ، وتولى الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الانشاء يقوم بتسلم المكاتبات الواردة ، ثم عرضها على الخليفة لدراستها واعتمادها وكان مرتبه مائة وخمسين دينارا ، ويطلق عليه أيضا اسم (كاتب الدست الشريف) أو (الشيخ الأجل) (١) ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعاونوه ثلاثين دينارا .

ويلى صاحب الانشاء في المرتبة صاحب القلم الدقيق ، الذي كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة ، وكان يتقاضى مائة دينار في كل شهر . ويلى صاحب القلم الدقيق في المرتبة صاحب العلم الجليل ، ومهمته تسلم رقع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة (٢) .

ومن الدواوين الفاطمية الهامة في عصر العزيز ، ديوان أسفل الأرض أو الوجه البحرى ، وكان يتولى الشؤون الادارية في أقاليم الدلتا كالشرقية والمرتاحية والدقهلية والأبوانية والغربية والسمنودية والمنوفيتين والبحيرة وغيرها من الشغور . أما ديوان أعلى الأرض أو ديوان الصعيد فيتولى ادارة الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى ويتبعه الجيزة والأطفيحية والبوجرية والفيومية والبهنساوية والأشمونيين والأسيوطية (٣) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥ و ١٠٣ .

(٢) سرور : الدولة الفاطمية ص ١٤٥ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٥ .

حرص الفاطميون على أن يكون موظفو الإدارة من بين ذوى الخبرة ، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية ، وكانت هذه الطريقة تهيب لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الادارية (١) .

ويرى المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى ان الحكومة الفاطمية فى ادارتها العامة قد اتبعت النظام العباسى أو بالحرى النموذج الفارسى القديم (٢) .

وكان الموظفون فى العصر الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ، ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة فى الأعياد والمواسم ، وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش ، مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على اكمل وجه ، وبذل كل جهد لتنمية مرافق البلاد الاقتصادية ، والدفاع عن البلاد اذا تعرضت لأخطار خارجية .

الكتابة والحجابه والشرطة فى عهد العزيز :

كانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة ، وكان الخلفاء لا يسندونها الا لمن انسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فاذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة فى أى وقت . وقد اتخذ الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى المغرب جوهر الصقلى كاتباً له فى سنة ٣٤١ هـ .

واهتم الفاطميون بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب لنشر مذهبهم ، واحاطة خلافتهم بالعظمة والتقديس . وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ، ومن طبقة الموظفين بديوان سر الخليفة ، وكان الخلفاء يجزلون لهم العطايا والخلع ، وعلى رأس هؤلاء الكتاب صاحب الانشاء .

(١) ماجد : نظم الفاطميين ج ١ ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٢ .

حرض الخليفة العزيز بالله على اختيار كتابه ممن اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب ، والتفوق في فن الانشاء . وتحدث (ابن ممتاني) عن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الكتابة فقال انه يجب أن يكون الكاتب حرا مسلما ، عاملا صادقا أدبيا ، فقيها عالما ، كافيا فيما يتولاه ، أميناً ، حاد الذهن ، قوى النفس ، جميل الذكر ، طويل الروح ، كثير الاحتمال ، حلو اللسان ، شديد الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، لا يقبل هدية أو عطية (١) .

لم يكن للحاجب في الدولة الفاطمية ما كان له من النفوذ في العصر العباسي الثاني . ويقول ابن خلدون انه لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الأسم للبداوة التي كانت فيهم ، وربما يوجد في دولة الفاطميين عند اتساعها وحضارتها ، إلا أنه كان على نطاق ضيق .

ولكن الحاجب كان على أي حال يمثل أحد رجال البلاط الفاطمي، بديل ما ذكره القلقشندي عند حديثه عن انعقاد مجلس الخليفة في العصر الفاطمي ، فقال أن صاحب بيت المال والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم عند الأبواب ، في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة . فمن هذا نعلم أن الحاجب لم يكن يتمتع بذلك النفوذ الذي تمتع به الحاجب في الدول الإسلامية الأخرى . ولم يقتصر اتخاذ الحجاب على الخليفة الفاطمي ، بل اتخذ كل من قاضي القضاة والوزير حاجبا أو أكثر ، يقفون بين يديه إذا جلس للحكم (٢) .

كانت الشرطة عدة الخليفة في حفظ الأمن وبث الطمأنينة بين الناس ، فكان صاحبها يراقب الأشرار والمفسدين ، ولذا كانت

(١) ابن ممتاني : كتاب قوانين الدواوين ص ٥ - ٦ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ ، والدولة الفاطمية لحسن ابراهيم

الشرطة منذ ظهورها وظيفه دينية وابتدأت بسيطة في أول نشأتها ، فكان نظام القسس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ثم تطورت الشرطة في عهد الخليفة على بن أبى طالب فأصبحت من الوظائف التى يتولاها عليه القوم ، وأصبح متوليها في العصرين الأموى والعباسى من كبار الموظفين المرشحين للحجابة والوزارة . وبعد أن كانت وظيفة تابعة للقضاء ، تنفذ أحكامه ، انفصلت عن القضاء وأصبح لها شخصية متميزة وسلطات خاصة .

ولما فتح العرب مصر ، كانت الشرطة في مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى .

وعند فتح الفاطميين لمصر ، نقل جوهر الشرطة العليا من العسكر الى القاهرة وذكر ابن دقماق (١) أن صاحب الشرطة توفى في نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر الى مصر ، فأسند عمله الى (جبر) ، وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط وتقلدها عروبة ابن ابراهيم وشبل المعرضى .

وعندما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر ، عهد بالشرطة السفلى والشرطة العليا الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلا قرىء يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون ، وأصبح ذلك سنة متبعة في عهد العزيز وسائر الخلفاء الفاطميين . وفي سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) أسند المعز لدين الله الشرطة العليا لجبر بن القاسم ، ثم جمع له الشرطتين العليا والسفلى (٢) .

(١) الانتصار بواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ١١ .

(٢) ابن منجب : الاشارة ص ٢٤ .

وفي عهد العزيز بالله ، قام نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضى الذى كان يعتبر نفسه صاحب الولاية الشرعية الأولى (سنة ٣٦٩ هـ) ، وتدخل العزيز ووزيره فى حسم هذا النزاع .

بريد العزيز بالله :

اهتم الفاطميون بالبريد فى دولتهم ، وكان البريد نوعين ، بريد جوى ، وبريد برى . أما البريد الجوى ، فقد استخدم الخلفاء الفاطميون فى نقله الحمام الزاجل . وأشار القلقشندى الى اهتمام هؤلاء الخلفاء بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل فقال : « وحافظ عليه - أى الحمام - الخلفاء الفاطميون ، وبالفوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام » .

وقص القلقشندى قصة طريفة ، فروى أن الخليفة العزيز بالله قال لوزيره يعقوب بن كلس انه لم ير طوال حياته (القراصية البعلبكية) ، وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر ، وبمصر حمام من دمشق . فكتب الوزير فى الحال بطاقة يأمر فيها نائبه بدمشق بأن يجمع ما بها من الحمام المصرى ، ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها الى مصر . ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى قدمت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير ابن كلس ، وطلع به الى العزيز فى الحال ، فأبدي العزيز دهشته من ذلك (١) .

وكان للحمام الزاجل محطات منتظمة ، وكان الحمام يحمل فى رقبته وأقدامه علامات مميزة . وتولى موظفون العناية به وتدريبه . وكانت الرسائل التى يحملها الحمام تكتب فى عبارات موجزة ، ويستغنى فى تحريرها عن الألقاب والديباجات ، وتدون على ورق خفيف يسمى « ورق بريد الحمام » أو « ورق الطير » وتشهد

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٩١ .

الرسالة تحت جناح الحمامة أو الى ذيلها . ولضمان وصول الرسالة ، كانت الرسالة ترسل من صورتين ، وعلى دفعتين ، بين كل حمامة والأخرى قدر ساعتين ، فاذا ضلت احدى الحمامتين أو قتلت لسبب ما ، أمكن الاطمئنان على وصول الحمامة الثانية . وكان البريديون يختارون الطقس المناسب لارسال الخطابات بواسطة الحمام .

وفي عصر الخليفة العزيز بالله ، كان الحمام الزاجل يستخدم في اللهو كما استخدم في البريد . فقد حدث مرة أن طائرا للوزير يعقوب بن كلس سبق طائرا للعزيز في سباق أقيم للطيور ، مما أثار غضب الخليفة . واتخذها أعداء الوزير فرصة للكيد له ، فكتبوا الى الخليفة أن ابن كلس اختار من كل صنف أعلاه ، ولم يترك لأمير المؤمنين إلا أدناه حتى الحمام ، فبلغ ذلك الوزير ، فكتب الى الخليفة العزيز :

قل لأمير المؤمنين له العلى والمثل الثاقب
طائرات السابق ولكنه لم يأت الا ولله حاجب
وأبدي الخليفة العزيز بالله اعجابه بذكاء وزيره ابن كلس ولباخته ، وسرعة خاطره ، ولم ينصت الى كيد أعدائه (١) .

أما البريد البرى ، فقد كان في عصر العزيز بالله بواسطة الخيل ، فكان لكل محطة من محطات البريد عدد من الخيل تعرف باسم (خيل البريد) ، يتولى أمورها عدد من الموظفين والسياس . وزودت المحطات بالماء والطعام والعلف والزاد ، وبها مبان لايواء عمال البريد وخيولهم .

وكان الخليفة الفاطمي يختار البريديين ممن عرفوا باخلاصهم له ، واتصفوا بالكفاية والذكاء والأمانة ، فقد يحملون أحيانا رسائل

(١) تاريخ البريد في مصر ص ٤٤ .

شفوية غير مكتوبة ، وقد يعهد الخليفة اليهم بمراقبة العمال والولاة ، أو التجسس على الأعداء . وعدد القلقشندى (١) الصفات الواجب توافرها في البريدى ، فذكر أنه يجب أن يكون قديرا على تنميق الكلام وتحسين العبارة ، ويكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان ولين ، صدوقا بريئا من الطمع .

واختص البريدى فى عهد العزيز بالله بأعمال الدولة ، ولم يتم نقل مراسلات الجمهور . وكان البريدى يكلف بحمل البريد العادى الى النواب والولاة ، فاذا أثبت كفايته واخلاصه سمح له بحمل الرسائل الهامة الى من هم أرقى درجة كالملوك والأمراء أما مراسلات الجمهور ، فكان أغنياؤهم يبعثون رسائلهم مع عبيدهم ، وينتهر الفقراء هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد .

وحمل البريدى شارة هى لوح من الفضة أو النحاس الأحمر فى حجم الكف ، منقوش على أحد وجهيه بعض العبارات الدينية واسم الخليفة ، لتمييزه عن سائر موظفى الدولة ، ولتسهيل قيامه بواجباته . وكان البريدى على دراية كبيرة بالطرق والعقبات التى قد تصادفه ، كما كان ينقل أحيانا بعض الأشياء الخفيفة لسد حاجة البلاط والموظفين ، وكثيرا ما حمل بعض الأدوية التى يحتاج إليها بصفة عاجلة (٢) .

جيش العزيز بالله :

اهتم العزيز بالله بإنشاء جيش فاطمى قوى ، يعتمد عليه فى تدعيم الدولة الفاطمية وقتال أعدائها ، وقد أثبت هذا الجيش فى عهد العزيز كفايته وتفوقه فى قتاله لجيش القرامطة وأفتكين التركى ببلاد الشام .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١١٥ .

(٢) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ١٢٣ .

تألف جيش العزيز من الأمراء ، وطوائف الجند . وكان الجند يمثلون عدة عناصر ، أبرزها المغاربة من البربر ، وخاصة الطوائف الكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية . وبرز في عهد العزيز بالله الجند الأتراك والديلم . ويقدر النويرى في كتابه (نهاية الأرب) عدد جنود جيش المعز عند قدومه الى مصر بمائة ألف مقاتل كتمى وأربعين ألفا من البربر وستين ألفا من الزنوج . واختطت قبائل هذا الجيش خططها حول قصر الخليفة ، ورأى جوهر الا يقيم المغاربة في الفسطاط حتى لا يشيروا المتاعب لأهلها ، وكان اذا جل المساء بعث جوهر مناديا يجوب طرقات الفسطاط صائحا : « لا يبيتن أحد في المدينة من المغاربة » .. وأنزل جوهر جند المعز في مواضع في القاهرة عرفت بالحارات ، لكل طائفة حارة ، يقيم فيها الجند وأسره ، وبها الأسواق والمحلات التجارية .

واهتم العزيز بالله بمد جيشه بأنواع السلاح المختلفة ، ويصف المؤرخون خزائن السلاح وصفا مسهبا ، فكانت تحوى الخوذات والرماح والسهام والدروع والأقواس . وهناك خزائن خاصة بالخيام أو سروج الخيل . واهتم العزيز بتزويد جيشه بالمجانيق التي كانت ترمى الأسوار بالحجارة ، والحق بالجيش جماعة من (النفاطين) تقوم باعداد قوارير مملوءة بالنفط تلقيها على الأعداء لتحول دون تقدمهم .

انقسم الجيش الفاطمى الى خمسة أقسام : المقدمة وتتولى المناوشات الأولية واستكشاف الطرق وتتألف غالبا من الفرسان . والقلب ، وهو وسط الجيش ويتقدمه القائد العام . والميمنة والميسرة أو الجناحان . أما القسم الخامس فهو (ساقة الجيش) أى مؤخرته . ولكل قسم قائده ويأتمر بأوامر القائد العام ، ولذا كان يطلق على هذا الجيش اسم (خميس) . ويرأس كل عشرة جنود عريف ، ويرأس كل عشرة عرفاء نقيب ، ويرأس كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ويصحب الجيش كاتب وقاض

وترجمان ، وعمال لتمهيد الطرق وتركيب آلات الحرب ، وأطباء مزودون بالدواء ووسائل العلاج . كما اهتم الفاطميون بأصحاب الأخبار والعيون ، ويشبهون المخابرات في الجيوش الحديثة .

واهتم الفاطميون بدواوين الجيش ، مثل ديوان الجيش ، وديوان الرواتب ، وديوان الاقطاع . فيشرف ديوان الجيش على تدريب الجند ، ويسجل ديوان الرواتب أسماء الجند وعطاءهم الشهري ، وبلغ عطاء الجندي عشرين ديناراً شهرياً ، ويختص ديوان الاقطاع بالاقطاعات الممنوحة للجند .

وحرص الخليفة العزيز على توديع الجيوش بنفسه ، فكان يجلس في منظره باب الفتوح ، ويمثل القائد بين يدي الخليفة ، فيخلع عليه خلعاً مزركشة بالذهب . ويقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد صناديق الأسلحة والمؤن والعتاد . ثم يأمر الخليفة ببدء المسير ، ويحتشد الناس لتوديع الجيش ، ويقبلون الأرض تحية للخليفة .

وكان الخليفة الفاطمي يثير حماسة جنوده بعدة وسائل . فيفقد عليهم الأموال ، ويوليهم المناصب ، كما يخوفهم من الله عز وجل ومن غضب الخليفة عليهم أيضاً . وكان الخلفاء الفاطميون أكثر سخاء من الخلفاء العباسيين والأمويين ، واهتم الفاطميون برعاية أسر الجند أثناء القتال أو عند استشهادهم . كما زود الفاطميون جندهم بالوفير من السلاح والمؤن ، ولذا أصبح الجند الفاطميون مثالا للنظام والطاعة والاخلاص ، وأبدوا شجاعة وحازوا انتصارات رائعة في عهدي المعز والعزيز .

أسطول العزيز بالله :

امتد اهتمام العزيز بالله بالقوات الحربية الى الأسطول ، وخاصة بعد تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على بعض مدنها مثل أنطاكية وحلب . ولذا حرص كل من الخلفيتين المعز والعزيز على انشاء أسطول فاطمي عظيم ، واحتشدت سقنه

في مدينة مصر ، وفي الاسكندرية ، ودمياط ، ورابطت بعضها في موانئ الشام مثل عكا وصور وعسقلان . وأشاد المؤرخ المقيزي باهتمام المعز والعزیز بالأسطول فقال : « لما سار الروم الى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة ، اشتد أمرهم بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله . وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه . وكان لهم اهتمام بأمر الجهاد ، واعتناء بالأسطول ، وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، وتسييرها الى بلاد الساحل ، مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت في أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة » .

وأنشأ الخليفة العزيز بالله - كما يذكر المسيحي المعاصر للعزيز - دارا لصناعة السفن بالمقس ، وهى قرية على النيل ، وبنى بهذا المرفأ الصناعى ستمائة مركب وصفها المسيحي فقال : « انه لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ورشاقة وحسنا » (١) .

وقام الأسطول المصرى الفاطمى بدور كبير فى عصرى المعز والعزیز فى الحروب التى قامت بين القرامطة والفاطميين (٣٦٠ - ٣٦٧ هـ) ، فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل الى مصر ويهدد دلتا النيل ويفرق كثيرا من سفن الفاطميين فى البحر المتوسط ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمد الحاميات الفاطمية المحاصرة ، فى بلاد الشام .

واعتمد العزيز بالله على غابات لبنان فى تزويد أسطوله بحاجته من الأخشاب ، الى جانب الأشجار المزروعة بمصر ، مثل أشجار الجميز والسنبط والنبق والسرو ، وغيرها من أشجار الوجه القبلى ، وخاصة أشجار مدن البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص . وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب لتوفير حاجيات

(١) خطط المقيزى ج ٢ ، ص ١٦٥ .

الأسطول . على أن انتاج البلاد من الخشب لم يكن كافيا ، كما أن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلاية المطلوبة . ولذا كان الفاطميون يستوردون الأخشاب من تجار البندقية ، وكثيرا ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المسدن الإيطالية من مد الفاطميين بحاجتهم من الأخشاب .

وتطورت الاسكندرية ودمياط وموانئ الشام في عهد العزيز ، وأصبحت من أبرز الموانئ التي ترابط بها السفن الفاطمية . كما أصبحت (عيذاب) قاعدة بحرية للأسطول الفاطمي في البحر الأحمر . رأس الأسطول المصري عشرة قواد ، ويرأسهم (قائد القواد) أو (أمير الجيش) ، وبلغ مرتب كل قائد عشرين دينارا شهريا . وأوقف الخلفاء الفاطميون كثيرا من الاقطاعات المحبوسة للانفاق على الأسطول (١) . وكانت الخدمة بالأسطول اختيارية ، دون اجبار ، وكان البحارة موضع تقدير من عامة الناس ، فكانوا يسمونهم « المجاهدين في سبيل الله » أو « الغزاة في أعداء الله » (٢) وكان الخليفة العزيز يقطع رجال الأسطول اقطاعات عرفت باسم « أبواب الغزاة » ، وكان يسمح لهم بالاستيلاء على كل ما يقع في أيديهم خلال المعارك من أموال وثياب ومتاع ، ولا يحتفظ الخليفة سوى بالأسرى والسلاح . وكان ديوان الجهاد ، أو ديوان العمائر ، يشرف على الأسطول .

والى جانب الأسطول الحربى ، كان هناك أسطول تجارى . وأصبح للدولة الفاطمية في عهد الخليفة العزيز بالله أسطولان تجاريان ، أحدهما في البحر المتوسط ، والآخر في البحر الأحمر . وأصبحت الاسكندرية ودمياط في مصر ، وعسقلان وصور وصيدا وعكا في الشام ، من أهم موانئ البحر المتوسط ، كما أصبحت عيذاب أبرز موانئ البحر الأحمر . وكانت الأساطيل التجارية مزودة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ .

بسفن حربية للقضاء على قراصنة البحار . وحملت السفن التجارية الانتاج المصرى ، وخاصة المنسوجات ، الى كثير من دول العالم .

وفى عهد الخليفة العزيز بالله ، احترقت خمس عشاريات ، وابت
النيران على العدة والسلاح ، ولم يبق الا ستة مراكب ، واتهم العزيز
الروم باشغال هذا الحريق ، وكانوا مقيمين حينئذ بجوار دار
الصناعة فى المقس . واثار هذا الحريق مشاعر عامة الناس ، فقاموا
بنهب دور هؤلاء الروم ، وقتلوا نحو مائة رجل منهم (١) .

تنوعت السفن الحربية التى تكون منها الاسطول الفاطمى ،
فمنها : الشوانى (جمع شينى أو شونى) التى امتازت بأبراج
للدفاع والهجوم واحتوت على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن
الماء العذب . ومن سفن الاسطول أيضا : الحرايق (جمع حراقة)
وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن
العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق والسهام . كذلك كان من سفن
الاسطول الطرائد (جمع طريدة) وتستخدم فى نقل الخيول ،
والشلنديات وهى مراكب مسطحة تقوم بحمل العتاد والجند ،
والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة (٢) .

القضاء والمظالم فى عهد العزيز :

لم يكن القضاء فى عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)
والأخشيديين (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) تابعين للمذهب واحد ، بل كان
كل منهم يحكم وفق المذهب الذى ينتمى اليه ، واشتهر قضائهم
بالعدل والكفاية .

وكان قاضى القضاة فى مصر عند الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ
هو (أبو الطاهر) ، وقد تولى هذا المنصب منذ سنة ٣٤٨ هـ ،

(١) الخطط ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ج ١ ص ٢٣١ - ٢٢٣ .

ورأى جوهر أن عزله وتعيين قاض آخر من الشيعة قد يثير غضب المصريين ، فرأى أنه من الحكمة أن يبقيه في منصبه ، ولكنه في نفس الوقت عمل على الحد من نفوذه . وكان جوهر قد تعهد للمصريين أن يحقق لهم الحرية الدينية التامة في اعتناق مذهبهم .

ثم قدم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر ، ونزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبلوا الأرض بين يدي الخليفة ، ما عدا أبا الطاهر ، وسأل المعز عن هذا الرجل الذي خالف الناس جميعا ، وتقدم حاجب للخليفة إلى القاضي يلومه ، فقال القاضي بصوت مرتفع بحيث يسمعه المعز : « وما هذا ، هو الشمس التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم آياه تعبدون) » . ونالت هذه العبارات اعجاب المعز ، وأقر القاضي في منصبه . وزاد اعجاب الخليفة به حين سأله : كم رأيت من خليفة ؟ فأجاب : ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه .

ولكننا نرى أن ابقاء المعز على هذا القاضي ليس اعجابا بلباقته وسرعة بديهته ، ولكنه لضرورة سياسية ، حتى لا يثير مشاعر المصريين السنيين ، ودليلنا على ذلك ما بدأ به المعز بعد فترة من الحد من سلطات هذا القاضي . ففي شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) اشرك المعز مع أبي الطاهر المالكي المذهب ، أبا سعيد عبد الله ابن محمد بن أبي ثوبان المغربي الذي كان قد صحب المعز إلى مصر ، فكان يختص بالنظر في مظالم المغاربة في أول الأمر ، ثم اتسعت اختصاصاته ، فأصبح ينظر في القضايا المشتركة بين المغاربة والمصريين ، ثم ازداد نفوذه حتى أصبح ينظر في قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضي مصر والاسكندرية (١) .

(١) الكندي : كتاب القضاة ص ٢٨٧ .

وبعد وفاة ابن أبي ثوبان ولي الخليفة العزيز ابن النعمان الى جانب ابي الطاهر وهذا التنصيب يدل على ما ظهر في سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد أن تم لهم فتح مصر حيث أصبح القضاء يقلد لاثنتين من القضاة أحدهما سنّي والآخر شيعي . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السنّي تدريجيا فحسب بل ذلك بايذان أيضا بانتهاء عهد تقلد السنّين منصب القضاء (١) .

ولما اقتسم القضاء ابن النعمان وأبو الطاهر كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم في أحكامه . وجلس أولهما للحكم في الجامع العتيق أي جامع عمرو وثانيهما في الجامع الأزهر فظلت الحال على ذلك الى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ في خلافة العزيز بالله وفيه اضطلع على بن النعمان بالقضاء عامة .

وكان الخليفة العزيز بالله يرغب في تحويل القضاء الى الشيعيين ويجعله بصفة خاصة في بيت النعمان . ولذا عهد العزيز في سنة ٣٦٥ هـ الى علي بن النعمان بالاشراف على دار العرب والجامعين بمصر والقاهرة أي جامعي عمرو والأزهر وهذه الاجراءات ترمى الى الحد من نفوذ القاضي السنّي والى نشر قواعد المذهب الاسماعيلي بطريق القضاء .

ولم يرض السنّيون عن هذا الاجراء ولخز في نفوسهم أن يروا القاضي الشيعي المغربي على بن النعمان يشارك أبا الطاهر القاضي السنّي في مجلسه بجامع عمرو ولذا انتصر لأبي الطاهر من كان معه من الشهود والسنّيين كما انتصر له الفقهاء السنّيون وكثير من التجار . واعتبر الخليفة العزيز هذا (الاحتجاج مظهرا من مظاهر الخروج على طاعة الدولة الفاطمية وعلى مذهبها الاسماعيلي ولذا قبض رجال الشرطة على جميع المتظاهرين والقوا بهم في السجن

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية من ٢٠٩ .

ولم يطلق سراحهم الا بعد أن تدخل على بن النعمان (١) .

تقدم القاضي أبو الطاهر باستقالته الى الخليفة العزيز بالله وعللها بمرضه وشيخوخته وكان هذا القاضي قد أصيب بفالج أبطل شقه مما جعل العزيز بالله يقول بعد أن رآه على هذه الحال : « ما بقى إلا أن تقدوده » (٢) .

ويبدو أن أبا الطاهر حزن كثيرا لازدياد نفوذ على بن النعمان وأدى حزنه الى اصابته بالفالج . كما يبدو أن الخليفة العزيز كان ينوى أن ينقل القضاء من السنيين الى الشيعيين قبل استقالة أبي الطاهر في صفر ٣٦٦ هـ وان كان العزيز قد تردد كثيرا في اتخاذ هذا الاجراء بسبب حب وتقدير الشيعيين لأبي الطاهر مما أدى الى المظاهرة التي أشرنا اليها . ولكن مرض أبي الطاهر ثم استقالته حل المشكلة .

وتحدث المقرئ عن استقالة القاضي فذكر أن الخليفة العزيز ركب في صفر سنة ٣٦٦ هـ الى الموضع المعروف بالجنان في جزيرة الروضة على مقربة من جامع عمرو حيث يعقد أبو الطاهر مجلس الحكم وهناك استقبل القاضي وشهوده الخليفة العزيز وسأله أن يأذن له في الاستقالة بسبب ضعفه وقبل العزيز استقالة القاضي السنن على الفور وكأنه كان ينتظرها أو يتوقعها ، وبعد ثلاثة أيام ولي العزيز القاضي الشيعي على بن النعمان « القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة والامامة والقيام على الذهب والفضة » (٣) ، والمواريث ، والمكايل » (٤) .

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٨٧ .

(٢) الكندي ص ٥٨٥ .

(٣) أي تولى أمور بيت المال .

(٤) الكندي ص ٥٨٩ .

أصبح ابن النعمان قاضي القضاء طوال عهد الخليفة العزيز بالله وقد احتفل بتقليده منصبه في الجامع العتيق وظل يتولى هذا المنصب حتى مات في رجب سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) وكان شاعرا مجيدا وهو أول من تلقب بقاضي القضاة في مصر مثلما كان أبو يوسف ، صاحب كتاب الخراج ، أول قاض للقضاة في بغداد عاصمة الدولة العباسية في عهد الخليفة هارون الرشيد .

واتسعت سلطات علي بن النعمان فأصبح يولى القضاة أو معظمهم ، من الاسماعيلية وحتم عليهم أن يحكموا بمذهب الاسماعيلية لا بمذهب الشافعي أو غيره من الأئمة السنيين واستخلف أخاه محمدا على قضاء تنيس ودمياط والفرما وغيرها .

ولما توفي علي بن النعمان ولي الخليفة العزيز بالله ابنه الحسين القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال وأسند اليه مقاليد الدعوة الفاطمية فأصبح يطلق عليه لقب (قاضي القضاة وداعي الدعاة) واستمر أولاد النعمان يتولون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ .

من واجبات القاضي في عهد العزيز بالله أن يحضر مع الخليفة في أيام المواسم والأعياد الرسمية فاذا جلس الخليفة في الموكب دخل القاضي وسلم عليه بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته (١) . وفي ليالى الوقود الأربع (٢) كان على القاضي أن يرد السلام على الخليفة عندما يظهر للناس ويبدأه بالسلام ويركب هو والشهود بمجرد حجب الخليفة يفلق الطاقتين وانفضاض الناس ، الى دار الوزير ليسلموا عليه وليدعوا له .

ثم كان على القاضي بعد ذلك أن يحضر الى جامع عمرو ويدخل في باب الريادة التي يحكم فيها ليصلى في الجامع ركعتين . وكان

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ج ٢ ص ٥٤٠ *

(٢) وهي ليلة أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه .

يوقد له التنور الفضة بالجامع فاذا خرج القاضي من الجامع ، وكان ساكنا بمصر ، صحبه والى مصر الى منزله ، وان كان ساكنا بالقاهرة كان على والى القاهرة ان يصحبه الى داره .

وفي ليلة النصف من رجب كان على القاضي فوق ما تقدم ان يتوجه بعد صلاته في جامع عمرو الى القرافة حيث يصلى في جامعها . كما كان يشهد المولد النبوى ومولد الامام على ويكون أول من تفرق عليه الحلوى . كما كان القاضي يحضر ركوب الخليفة في المواعيد العظام وخاصة أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، وعند ركوب الخليفة لصلاة عيدى الفطر والأضحى ، كما كان يعد الخطبة التى كان الخليفة يلقها . وكان القاضي في عيد الأضحى يقدم الى المنحر ويقوم بتوزيع لحوم الحيوانات التى يذبحها الخليفة بيده على جوامع القاهرة . كما كان القاضي يرتدى ملابس الحداد في يوم عاشوراء أى يوم ذكرى مقتل الحسين ويشارك في سماء الحزن كما كان يحضر الأسمطة في رمضان كما كان يصحب الخليفة العزيز بالله عندما كان يشرف على أسطوله في المقس . وكان القاضي والفقهاء يحضرون مجالس يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله في كل ليلة جمعة حيث كان الوزير يقرأ عليهم مصنفاته (١) .

وفي عهد العزيز بالله أشرف كل من على ومحمد ابنى النعمان ، الى جانب توليهما القضاء ، على دور الضرب لضبط عيار ما يضرب من الدنانير والموازين والمكايل . كما كان القاضي يتولى أيضا النظر في المظالم وقضايا الجند ويتولى بعض المسائل الدينية ، فكان محمد ابن النعمان في عهد العزيز يتولى الخطابة والامامة وكثيرا ما جلس محمد بن النعمان لقراءة علوم الشيعة ، كما تولى الاشراف على الدعوة الفاطمية (٢) . وبلغ مرتب قاضى القضاة مائة دينار في الشهر

(١) نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ص ٢٥٦ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

عدا المخصصات الأخرى (١) .

وعندما شعر الخليفة العزيز بالله بدنو أجله استدعى قاضى
القضاة محمد بن النعمان ليوصيه على ابنه الحاكم بأمر الله ، وتولى
القاضى غسل الخليفة (٢) .

كان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة
قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر ، ويسمى
رئيس هذا الديوان (صاحب المظالم) ، وسلطة أعلى من سلطة
القاضى . ويقول ابن خلدون فى مقدمته عن المظالم : « وهى وظيفة
ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد
وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدى ، وكأنه
يمضى ما عجز القضاء أو غيرهم عن امضائه ، ويكون نظره فى البيئات
والتقرير واعتماد الامارات والقرائن ، وتأخير الحكم الى استجلاء
الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود ، وذلك
أوسع من نظر القاضى » .

اهتم الخلفاء الفاطميون بالمظالم فقد كان على بن أبى طالب
أول من نظر فى المظالم من الخلفاء الراشدين . وكانت محكمة المظالم
تنعقد برئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما ويعين
صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون اذا كان من الموظفين
ليستفرغ لأعماله الأخرى . أما اذا انفرد بالمظالم نظر فيها طوال أيام
الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد . ولم تكن
محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها بل تعدى اختصاصها
الى الفصل فى شكاوى الشعب عامة . وكان صاحب المظالم أكثر
حرية من القاضى فى أحكامه . ومما دعا الى انشاء هذا المجلس ما كان
يتعرض تنفيذه أحكام القاضى من مصاعب ، ولا سيما اذا كان المدعى

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٦ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٥٥ .

عليه من أصحاب المراتب العالية أو كان يشغل وظيفة كبرى من وظائف الدولة (١) .

لما قدم جوهر الصقلى الى مصر جلس للنظر فى المظالم بنفسه ووقع على رقايع المتظلمين فى كل يوم سبت ، وحضر مجلسه الوزير والقاضى وكبار الفقهاء وأصدر أحكامه بنفسه . وكان جوهر يعهد أحيانا بالنظر فى المظالم الى ابن عيسى مرشد (٢) .

وعند قدوم المعز لدين الله الى مصر ، كان يتولى غالبا النظر بنفسه فى المظالم ، أو يعهد بها الى أحد كبار رجالات الدولة ، مثل يعقوب بن كلس وعسلوج بن حسن ، فكانا يجلسان للنظر فى المظالم فى جامع ابن طولون .

تولى أبو سعيد عبد الله بن ثوبان فى عهد الخليفة المعز لدين الله النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة (شوال ٣٦٢ هـ) ثم اتسعت اختصاصاته فنظر فى مظالم المصريين أيضا .

وعهد الخليفة العزيز بالله بالنظر فى المظالم الى الحسين ابن عمار (٣) . وكان ينظر فى المظالم أحيانا صاحب الباب فى باب الذهب بقصر الخليفة فيجلس بين يديه النقباء والحجاب على حسب مكانتهم ، فينادى المنادى بين يديه أن كل من له مظلمة فليتقدم ، وكان قاضى المظالم يولى غالبا بمرسوم من الخليفة ويقرأ سجله فى المسجد الجامع حيث كان يعقد جلساته .

وممن اشتهروا فى عهد الخليفة العزيز بالله بالنظر فى المظالم القاضى أحمد بن طالب التونسى ، وهو قاضى مصر وقد عهد اليه العزيز بالنظر فى المظالم (٤) .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٢ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) ابن حجر : زحف الاصر من قضاء مصر ورقة ٤٢ .

حضارة مصر في عهد العزيز بالله

نهضة زراعية في مصر :

كان طبيعيا أن تهتم الدولة الفاطمية بأحوال الزراعة في مصر فقد كان الفاطميون يعتمدون على الانتاج الزراعى فى موارد الدولة . وكان عصر الخليفة العزيز بالله هو العصر الذهبى للدولة الفاطمية ولمصر وللزراعة المصرى . وبلغت مساحة الأراضى المزروعة فى أول عهد العزيز ٧١٤ ، ٢٨٥ فدانا ولم تزد هذه المساحة طوال العصر الفاطمى بل نقصت فى عهد المستنصر نتيجة انخفاض ماء النيل وانتشار الأوبئة .

اهتم الخليفة العزيز بالله بالرى فشق الترع وأقام انجسور . وكانت الأراضى المصرية تشققها شبكة من الخلجان والأبحر (١) والترع . وقد بلغ عدد خلجان مصر فى ذلك العصر ثمانية وبلغ عدد الأبحر خمسة وعشرين أما الترع فقد كانت ١١٧ ترعة فى الوجهين البحرى والقبلى (٢) . وحدثنا ناصر خسرو عن العجلات المائية التى كان يستخدمها الفلاح المصرى فى رفع الماء لرى أرضه ، فاستخدم السواقى والقادوس والطنبور والشادوف .

واهتم الفاطميون أيضا بمقاييس النيل لأنها تحدد مدى الرخاء الاقتصادى . فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعا استبشر الناس ، أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعا كان هذا نذيرا بحلول كارثة الفيضان ،

(١) الأبحر : جمع بحر وهى الترعة الكبيرة او الرياح الآن .

(٢) ابن ممالى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ - ٢١٦ .

أما إذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعا كان هذا نذيرا بحلول القحط والمجاعات (١) . وجرت العادة أن يذاع ما يبشر به المقياس على الناس فيخرج المنادي الى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن الخليفة المعز لدين الله أمر بكتمان أمر المقياس لأن الناس اذا شعروا بانخفاض النيل تسرب القلق الى نفوسهم فأخفوا الفلال وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر فيحدث الفلاء . واذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطا فاحشا ، وأصيب كبار التجار بخسارة فادحة لذلك كان في الكتمان عن عامة الناس فائدة محققة (٢) .

وتمتعت مصر في عهد الخليفة العزيز بالله بفترة رخاء اقتصادي كبير فقد كان فيضان النيل في عصره عاليا عن معدله فلم تحدث كوارث الفيضان كما لم يحدث ما حدث في عهد خلفائه وخاصة المستنصر من انخفاض النيل وما تبعه من قحط ومجاعات وأوبئة وكان في مصر في عهد العزيز مخزن كبير للحبوب كان قد أنشأه جوهر الصقلي عند قدومه الى مصر ، يكفي لتخزين حاجة مصر من الحبوب حتى لا تتأثر بانخفاض النيل . وعهد العزيز الى المحتسب برقابة هذا المخزن ، كما كان للمحتسب أن يمنع احتكار بيع الحبوب ويقوم بتقدير أثمانها وكان يعاقب أصحاب المطاحن الذين يخالفون أوامره بالجلد .

وشعر الفلاح المصري في عهد العزيز بالله بالأمان والاطمئنان فقد كانت هناك ادارة حكومية منظمة تشرف على شئون الزراعة وتقوم بمشاريع الري وتنظم شئون الضرائب وتحدد العلاقات بين ملاك الأراضي والمستأجرين من الفلاحين ، فلم تترك حكومة العزيز تقدير الخراج للمقطعين بل حددت مقداره . كما لم يحدث في

(١) منز : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٧٣ .

عهد العزيز بالله أن انتزعت الحكومة الفاطمية أرضا من أيدي أصحابها . ووضع العزيز الأمان الذي منحه جوهر الصقلي للمصريين موضع التنفيذ ، فقد أمنهم على أموالهم وضياعهم (١) .

وعمل العزيز بالله على تنمية الانتاج الزراعى ، ولذا عمل على توزيع الأراضي المملوكة للدولة على بعض أعوانه ، فأصبحت هذه الأراضي الحكومية ملكا للمقطعين . وكان العزيز يمنح بعض الأراضي لبعض الفلاحين مقابل دفع مبلغ معين من المال فتصبح هذه الأراضي اقطاع استغلال . وتمتع بهذا الحق أيضا جنود الجيش الفاطمى .

وفى عهد العزيز بالله كان القمح هو المحصول الرئيسى فى الأراضي الزراعية بمصر ، فقد كان القمح الغذاء الرئيسى للمصريين ، ولم تكن الدرة معروفة بعد فى مصر . وزرع المصريون الكتان فى الأراضي المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه فترة طويلة ، وانتشرت زراعة الكتان فى أراضى الدلتا والفيوم . كما توسع المصريون فى زراعة قصب السكر ، ولمس ناصر خسرو هذا التوسع عند زيارته لمصر . ومن أشهر المحاصيل المصرية الشعير والفول والحمص والعدس والبرسيم والبصل والثوم والترمس والسمن والخضروات المختلفة .

وقام المصريون أيضا بزراعة أنواع مختلفة من الفاكهة مثل الكروم التى كانت تزرع فى أراضى مريوط والجيزة والفيوم وقليلوب وغيرها من أراضى الدلتا والصعيد كما اتسعت مساحات الأراضي المزروعة بالنخيل وخاصة على ضفاف وادى النيل فى الصعيد ، وبلغ انتاج مدينة أسنا من التمر أكثر من أربعين ألف أردب سنويا وبلغ انتاج أسوان من البلح ستة وثلاثين ألف أردب سنويا .

(١) انظر نص عهد جوهر فى كتاب اتماظ الحنفا للمقريزى ص ١٥١ .

وكان اهتمام الخليفة العزيز بالله بإنشاء أسطول فاطمي قوى أثره في اهتمامه بزراعة أشجار الغابات لتوفير حاجيات الأسطول . وكانت أبرز مناطق هذه الأشجار البهنسا وأسيوط والأشمونين وقوص وأخميم . واهتم الفلاح المصرى بتربية الحيوانات والدواجن وتنمية الثروة الحيوانية . وكان الفلاح حرا ، غير رقيق يتنقل من أرض لأخرى باختياره وحسب رغبته .

تقدم الصناعة المصرية :

تطورت الصناعة في العصر الفاطمي عامة ، وفي عصر الخليفة العزيز بالله خاصة وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأحوال الداخلية في البلاد في عهد العزيز فضلا عن حياة الترف والبلذخ التى سادت المجتمع في معظم مدن مصر وخاصة القاهرة والفسطاط وكان لهذه الحياة أثرها في تطور الصناعات ولم تعد المصانع قاصرة على مد الجيش والأسطول الفاطمي بالسلاح والعتاد الحربى لطوائف الجند بل أنتجت المصانع كثيرا من المصنوعات الغالية والكمالية وأدوات الترف مما احتاجه الخليفة ووزراؤه ورجال الدولة وعامة الجمهور المصرى .

ازدانت معظم المصنوعات الفاطمية بصور آدمية وحيوانية كثيرة مما كان مكروها عند أهل السنة الذين كرهوا تصوير الكائنات الحية . بينما لم يمنع فقهاء الشيعة رسمها وأصبحت المصنوعات الفاطمية في هذه الناحية تحاكي الفنون الإيرانية .

أصبحت صناعة النسيج في مقدمة المصنوعات المصرية في عصر العزيز بالله نتيجة للتوسع في زراعة الكتان وأصبحت دمياط وتنيس وشطا أبرز مراكز صناعة الكتان . ومن أشهر المنسوجات الكتانية المصرية العمائم المذهبة التى كانت غطاء الرأس . كما اشتهرت مصر بالمنسوجات الصوفية وخاصة في بلدة (القيس) وطحا ، ولقيت هذه المنسوجات الصوفية رواجا كبيرا وشهرة عظيمة في جميع

بلاد العالم وخاصة بلاد الفرس ، فكان الفرس يطلقون على الانتاج الفاطمى اسم (المصرى) .

وازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى عهد الخليفة العزيز بالله بفضل الجهود التى بذلها أبوه الخليفة المعز ، فقد أنشأ المعز دار الكسوة التى كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم كما كان يصنع بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمي هذا العيد بعيد الحل . وكانت هذه المنسوجات الحريرية تبين مقدار مهارة المصريين وتفوقهم فى هذه الصناعة .

وكانت الكسوة التى أمر الخليفة المعز لدين الله بنسجها للكعبة مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر سعتها مائة وأربعون شبرا وفى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، فى كل هلال أترجة ذهبية . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ونقشت فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج بحروف من الزمرد الأخضر وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ووضعت فى القصر حتى يشاهدها الناس (١) . وسار الخليفة العزيز بالله على سيرة أبيه فى نسج كسوة سنوية للكعبة .

كما أمر الخليفة المعز سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب نقش عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار ومدن ، وتبرز موقع مكة والمدينة . وتميزت المنسوجات الفاطمية بزخارف قوامها اشربة من الكتابة توازيها اشربة أخرى بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود (٢) .

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٢) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٥٠ وما بعدها .

اهتم الخليفة العزيز بالله بصناعة بناء السفن فأنشأ داراً لصناعة السفن بالمقس وبني فيها ستمائة ، واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية الى جانب دور صناعة السفن في الاسكندرية ودمياط . واهتم العزيز أيضاً بزراعة أشجار الغابات في مصر واستيراد الأخشاب من لبنان . وفي آخر عهد العزيز بالله (سنة ٣٨٦ هـ) احترقت بعض سفن الأسطول فأمر عيسى ابن نسطورس بتوفير الأخشاب وطلب الصناع ، ونجح عيسى في أن يبني في شهر واحد مركبين كبيرين وبعد شهرين أنزل عيسى الى الماء أربع مراكب أخرى .

وتقدمت صناعة الزجاج والخزف وأصبحت الفسطاط من أبرز مراكز صناعة الزجاج كما ازدهرت صناعة الخزف حتى استعمله البقالون بدلا من الورق . وكان لاهتمام الخليفة العزيز بالله بتطوير بناء القاهرة ولقيامه بكثير من المباني والمنشآت وخاصة المساجد والقصور أثر في ازدهار صناعة البناء . وأدى انتشار الترف والرخاء في عهد العزيز وكثرة إنشاء القصور الى تقدم كثير من الصناعات مثل صناعات المعادن والعاج والفسيفساء ، وصناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع في صنع الحلى والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة . كما ازدهرت صناعة الأثاث وصناعة الحفر على الخشب وتجلي في التحف المصنوعة من الخشب في عصرى المعز والعزيز أثر الانتقال من الأساليب الفنية في العهدين الطولوني والأخشيدي الى الأساليب الفاطمية الراقية .

وشهد عهد الخليفة العزيز بالله نهضة علمية كبرى ساهمت في تقدم الصناعات فقد حول العزيز الجامع الأزهر الى جامعة علمية يقصدها آلاف الطلاب وكان العزيز يمدّهم بما يحتاجونه من أقلام وورق ومحابر . ورتب وزيره يعقوب بن كلس قوما يجلسون في داره لنسخ القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب فتقدمت

صناعة الورق ، وكانت الفسطاط أبرز مراكز هذه الصناعة . وكان يصنع الورق غالبا من نبات البردى ، كما استوردوا الورق أحيانا من بلاد الصين ، وصنعوا الورق أيضا من الكتان المضروب بالقطن أو من الخرق البالية . وصحب انتشار صناعة الورق تقدم في تجليد الكتب ، واستخدم الصناع جلود العجول ، كما استخدموا الحرير والديباج والأطلس في تجليد المصاحف كما تقدم فن الخط والتذهيب .

ولما كان قصب السكر من أبرز محاصيل مصر في عهد العزيز بالله ، فقد انتشرت مصانع السكر في مصر وخاصة في الفسطاط والمنيا والفيوم وأسيوط وقفت وسمنود وغيرها ، وبلغت مصانع السكر في الفسطاط وحدها ٥٨ مصنعا ، وكانت الدولة الفاطمية تحتكر هذه الصناعة فأنشأت المعاصر السلطانية . وكانت الدولة الفاطمية تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قسبا .

كما تقدمت صناعة الزيت الذي كان يستخدم في الطعام والوقود فاستخرج المصريون الزيت من الزيتون والسمسم والفجل والخس . وكانت الفيوم والفسطاط والبهنسا أبرز مراكز هذه الصناعة كما اهتم المصريون بصناعة الشمع في الاسكندرية وصناعة الصابون في الفسطاط (١) .

ازدهار التجارة الفاطمية :

ازداد النشاط التجارى في الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الاقطاعات ويكثر توافد الناس . وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق

(١) ابن ميسر ، تاريخ مصر ص ٤٤ .

النيل وفضلا عن ذلك فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام .

ولم يؤثر انشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى لان المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون ، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار في الفسطاط أقل منها في حاضرة الخلافة الفاطمية . وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم في العصر الفاطمى فكثرت بها المتاجر والأسواق كما كان يأتى إليها كثير من المراكب (١) .

اهتم الفاطميون بطرق المواصلات التجارية ، وكان النيل يمثل الشريان الرئيسى للمواصلات فى مصر وحملت السفن النهرية المحصولات الزراعية والمصنوعات المختلفة وأصبحت الفسطاط ميناء نهريا كبيرا واهتم الخليفة العزيز بالله بانشاء كثير من السفن النهرية لتنمية التجارة الداخلية . واصبح خليج أمير المؤمنين يربط بين نهر النيل والبحر الأحمر والموانئ القائمة عليه مثل مدينة القلزم ، وكانت مصر تمد الجزيرة العربية بحاجتها من الانتاج الزراعى والصناعى ، كما استقبلت القلزم السفن القادمة من الاقليم المسمى بجنوب آسيا ، والتي كانت تحمل الحرير والبخور والتوابل والنييلة .

واهتم الخليفة العزيز بالله بطرق التجارة البرية وقد شهدنا اهتمامه الكبير بطرق البريد ، واصبحت هذه الطرق تستخدم كطرق للقوافل التجارية وقوافل الحجاج أيضا .

وكانت للتجارة الداخلية مراكز هامة مثل مدينة القرما التي كانت تعتبر مدخل مصر من الشمال الشرقى وقد اشتهرت أيضا بمضائد الأسماك . واصبحت بلبيس مركزا لتجارة الفلال وكانت

(١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٢٥٠ وما بعدها .

تخرج منها قوافل تحمل ما تحتاجه بلاد الحجاز من حبوب ودقيق .
وكانت المحلة الكبيرة مركزا لتجارة المنسوجات والزيوت .
وأصبحت الاسكندرية مركزا للتجارة الداخلية والخارجية على
السواء واشتهرت بتجارة الزيوت والصابون .

وأصبحت دمياط من أبرز الموانئ التجارية في مصر بل الميناء
الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط . وزاد من شهرة
دمياط قيام دار الصناعة التي تقوم بصناعة السفن فيها .
كما أصبحت دمياط أيضا من مراكز صناعة المنسوجات نتيجة وفرة
الكتان في المدن والقرى المجاورة لها .

ومن مراكز التجارة الفاطمية مدينة عيذاب التي أصبحت
تنافس ميناء القصير في تجارة البحر الأحمر وتخرج منها قوافل
الحجاج واشتهر أهالي عيذاب البجاة بالأمانة والمسألة . وكانت
تنيس من أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر المتوسط ، وتستقبل
تجارة الشرق والغرب واشتهرت بتجارة السمك وصناعة الثياب
الملونة . كما كانت أسوان مركزا لتجارة النوبة والسودان .

احتلت التجارة الفاطمية المكانة الأولى في التجارة العالمية ،
وأصبحت الاسكندرية وبغداد مقياسا لأسعار البضائع العالمية في
ذلك الوقت ، ومن أبرز مراكز التجارة بين الشرق والغرب ،
واستردت الاسكندرية في العصر الفاطمي مركزها الدولي من
جديد (١) .

وأصبحت الفرما من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب
حيث تنقل منها ومن الاسكندرية التجارة الآتية من أوروبا الى البحر
الأحمر وكذلك التجارة الآتية من الشرق والغرب . وكانت السفن
بعد اقلاعها من الاسكندرية ترسو في موانئ برقة ثم طرابلس

ثم المهديّة . وأصبحت جدة الميناء الذي يستقبل الحجاج ويستورد حاجياتهم . كما اشتهرت عدن بأثرها في التجارة العالمية لوقوعها عند مدخل البحر الأحمر ولقربها من الإقليم الموسمي في جنوب آسيا .

اتسع نطاق التجارة الخارجية الفاطمية مع الأقطار الآسيوية والأوروبية . فكانت مصر تستورد محاصيل الهند والصين وما تحتاجه من مواد خام مثل الحديد والخشب . بل كانت مصر تعمل أحيانا كوسيط تجاري بين أوروبا وآسيا . وأصبحت الإسكندرية مركزا تجاريا كبيرا تنقل منها البضائع الآسيوية إلى أوروبا ، وتقدم إليها السفن الأوروبية محملة بالسلع اللازمة للإنتاج الصناعي في مصر . وكانت مصر تصدر إلى بلدان أوروبا النظرون والشب والمنسوجات المختلفة (١) .

وكان لانتشار الرخاء في عصر الخليفة العزيز بالله أثره في استيراد الكماليات ومواد الترف والأبهة مثل الجواهر وأدوات الزينة والطرف والسيوف المطعمة والسروج المذهبة والملابس المحلاة بالجواهر . كما استوردت مصر اللؤلؤ من مصايد الخليج الفارسي وسواحل عمان وحفلت صور العزيز بالله بالأسمطة والولائم فاحتاجوا إلى استيراد التوابل والعطور من أسواق الشرق الأقصى لكفاية حاجة مصر وتصدير الباقي إلى دول أوروبا . وكان قصر الخليفة يستهلك في كل شهر ثلاثين مثقالا من النمد و ١٥٠ درهما من العود الصيني و ١٥ درهما من الكافور وعشرة مثاقيل من العنبر الخام و ٢٠ درهما من الزعفران و ٣٠ رطلا من ماء الورد . كما نمت تجارة الرقيق ، وخاصة الرقيق المجاوب من السودان ، فقد كان لست الملك ثمانمائة جارية (٢) واستوردت مصر

(١) البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٢٤٣ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٨ .

الحرير من صقلية والحديد من ايطاليا وخشب الساج من الملايو
والفطرة (الجوز واللوز والفسق . الخ) من بلاد الشام والمغرب
والهند ، والفاكهة والزيت من بلاد المغرب .

وتوثقت الصلات التجارية بين مصر والمدن الايطالية وخاصة
جنوة والبندقية ، فكانت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد الى
الموانئ المصرية . وكانت المنسوجات المصرية تلقى اقبالا ورواجا في
ايطاليا وكل اقطار أوروبا . وكان أهالي مالفي يعتمدون على الصناعات
المصرية في تزيين قصورهم بالفسيخاء . وكان لأهالي مالفي عدد
كبير من الفنادق في الاسكندرية . ونشأت جنوة صداقة مصر
لتأمين حجاجهم الذين يحجون الى بيت المقدس .

وعلى الرغم من الخلافات السياسية بين مصر والدولة
البيزنطية ، إلا أنه قامت بينهما علاقات تجارية فاستورد البيزنطيون
المنسوجات المصرية من مصانع دمياط وتينيس واستوردت مصر
الفلال من الدولة البيزنطية .

كما توثقت الصلات التجارية بين مصر وجزيرة صقلية فقد
ظلت صقلية تابعة للدولة الفاطمية زمنا طويلا ، وكان توسط صقلية
للبحر المتوسط أثره في جعلها مركزا تجاريا ممتازا . ورغم استيلاء
البيزنطيين على جزيرة قبرص ، فقد كانت السفن المصرية تصل اليها
حاملة مختلف المصنوعات المصرية .

واستمرت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد المغرب على الرغم
من انتقال الدولة الفاطمية الى مصر في عصر المعز لدين الله كما كانت
مصر على علاقات تجارية وثيقة ببرقة والسودان وغانا وحوض
السنغال والنيجر وبلاد الأندلس . ورغم عداة الفاطميين للعباسيين
فقد استمرت الصلات التجارية بين مصر والعراق وإيران . وعقد
الفاطميون كثيرا من المعاهدات التجارية مع ملوك النوبة .

واهتمت حكومة الخليفة العزيز بالله بتوفير وسائل الراحة
والأمان للتجار الأجانب . فأقامت الوكالات ، وتشبه الفنادق اليوم .

كما اهتمت بالأسواق واقامة الحوانيت والمخازن والمساكن والخدمات
كما كانت الحكومة الفاطمية تراقب العمليات التجارية وتحدد
الأسعار وتمنع الغش والتدليس ، وتحرس طرق القوافل .
وكانت الرسوم المفروضة على التجارة الخارجية تختلف حسب
جنسية التجار وحسب انواع التجارة .

اهتمام العزيز بالله بالعلم والثقافة :

تميز العالم الاسلامى فى العهد الذى عاصره الخليفة العزيز بالله
بنهضة ثقافية اسلامية عظيمة بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية
وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية ،
وبفضل نزوح ملكات المسلمين فى البحث والتأليف ، وتشجيع
الخلفاء والأمراء لرجال العلم والأدب ، وانتشار العمران واتساع
أفق الفكر الاسلامى بارتحال المسلمين .

وكان من اثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة
العباسية أن نشطت الحركة الفكرية ونهضت الثقافة . وزخر بلاط
هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . أضف الى ذلك
ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق
مبادئها السياسية والحربية . وكان للجدل والنقاش اللذين قاما بين
الفرق الشيعية والسنية أثرهما الواضح فى النهضة العلمية التى تميز
بها العصر الفاطمى (١) .

اهتم الخليفتان المعز والعزيز بالله بالعمل على نشر الثقافة
العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة
الاسماعيلية كالفقه والتفسير . وكان للجامع الأزهر أثر كبير فى
النهضة الثقافية فى مصر .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٠ .

تحدث المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى (١) عن الطابع الثقافى فى مصر فى العصر الفاطمى فقال : « مصر هى البلاد الوحيدة من بين كل الأملاك الفاطمية التى ترك فيها الخلفاء الفاطميون أثرا طبعها بطابعهم الثقافى ذى المميزات الخاصة . ويمكننا فى التاريخ الثقافى لمصر أن نصف الحكم الفاطمى والحكمين الاخشيدي والطولونى الذين سبقاه بأنها كانت عصورا يغلب عليها الأثر العربى الفارسى على عكس عصور الأيوبيين والمماليك التى كان يغلب عليها الأثر الفارسى التركى . أما الفترة السابقة للحكم الطولونى فيمكن أن تصفها بأنها كانت فترة عربية خالصة » .

شهد عهد العزيز بالله نهضة ثقافية وعلمية كبيرة ، فقد كان العزيز نفسه شاعرا ومجبا للعلوم وحمل وزيره يعقوب بن كلس لواء هذه النهضة الثقافية فقد جلس بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة وضعها فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيلى وتسمى (الرسالة الوزيرية) تضمنت ما سمعه فى ذلك من كل من الخليفة المعز والخليفة العزيز . وكان على القضاة أن يعتمدوا على هذا الكتاب فيما يصدرونه من أحكام فى محاكمهم التى كانت تعقد عادة فى المساجد ، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسوه فيما بينهم .

وكان يفد الى سماع ابن كلس الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة . وكان يعقد مجلسه مرة فى الجامع الأزهر ومرة أخرى فى قصره . حيث يقرأ مؤلفاته على أهل العلم . وكان الشغراء يتقدمون فى آخر الاجتماع فينشدون مدائحهم .

وجمع ابن كلس فى قصره عددا كبيرا من الفقهاء والكتاب فكان بعضهم يشتغل بكتابة نسخ من القرآن الكريم وبعضهم ينسخ كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم وخاصة كتب الطب .

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٠ .

وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط . وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل اسمه الحسين بن عبد الرحيم يلقب بالزلزلى ، وهو صاحب كتاب الأسجاع . ومن الشخصيات التى اشتهرت فى عهد العزيز ، محمد التميمى الطبيب الذى ولد فى بيت المقدس ورجل الى مصر .

أسس ابن كلس مجمعا علميا كان ينفق عليه ألف دينار شهريا وجعل فى قصره جماعة من القراء والأئمة وعين لهم الرواتب الخاصة ووكل اليهم اقامة الصلاة فى المسجد الذى بناه فى قصره .

كان معظم أهل العلم فى ذلك الوقت من طبقة الفقهاء التى كانت تضم القضاة وأصبحت المساجد مراكز ثقافية ويقصدها العلماء والأدباء . وخاصة فقهاء المذهب الشيعى الذين كانوا يلقون محاضراتهم فى أصول المذهب الاسماعيلى وكان بعض الوزراء والقضاة يضعون الكتب حول هذا المذهب ويقوم الأساتذة بتدريسها لعامة الناس .

وفى رمضان سنة ٣٦٩ هـ دعا ابن كلس الناس على اختلاف مراتبهم الى اجتماع وقرأ عليهم بعض مؤلفاته . وكان لابن كلس أيضا الفضل فى تنمية مكتبة قصر الخليفة وإضافة كثير من الكتب اليها حتى اذا توفى هذا الوزير نقلت مكتبته الخاصة الى مكتبة قصر العزيز .

وفى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية بعد أن كان مقصورا على نشر الدعوة الفاطمية واستأذن الوزير من العزيز فى أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ورحب العزيز بهذا الاقتراح ، ورتب لهؤلاء الفقهاء رواتب شهرية وأنشأ لهم مساكن خاصة بهم بجوار الجامع الأزهر .

وأصبح الأزهر مقصدا لطلاب العلم من كل أرجاء العالم الاسلامى ، عربا وغير عرب ، وعمل الخليفة العزيز بالله على تشجيعهم بتوفير وسائل الحياة ، فكان يقدم اليهم المسكن والمأكل مجانا . وصار هؤلاء الطلبة يدرسون التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم . وظل الأزهر ايضا مركز الفقه الفاطمى الى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله فانتقل اليه الفقهاء لالقاء دروسهم .

تحدث المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) عن اثر الجامع الأزهر فى انتشار الثقافة فقال : كانت الثقافة الأزهرية مثالا طيبا للتعليم الحر الذى يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز فى الجنس أو اللغة أو الطبقة . وليس من السهل أن ينس المرء منظر الطلاب وقد التفوا حول استاذهم واخذوا ينصتونه اليه كأن على رؤوسهم الطير أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعلموه من استاذهم . والواقع أن هؤلاء يمثلون فى أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية فى العصور الوسطى حيث الرغبة الصادقة فى العلم التى لا تتحسس فى طلبه بقصد الحصول على الجوائز أو اجتياز الامتحانات وذلك ما تفتقر اليه الجامعات الغربية .

واهتم الخليفة العزيز بالله بالمكتبات وكان فى قصره الشرقى مكتبة كبيرة تحفل بالآلاف الكتب . فقد حمل أبوه المعز لدين الله معه عند قدومه الى مصر من بلاد المغرب عددا كبيرا من الكتب أصبحت نواة مكتبة القصر ، ثم عمل العزيز بالله على تنميتها وقام وزيره يعقوب بن كلس بدور كبير فى تطوير هذه المكتبة وبعد وفاة هذا الوزير نقل الخليفة مكتبته كما ذكرنا من قصره الى قصر الخليفة .

(١) سيرة القاهرة ص ١٢١ .

وشجع الخليفة العزيز بالله تجار الكتب على جلب الكتب النادرة ليضمها الى مكتبة القصر . وقد روى المقرئ (١) أن رجلا قدم على العزيز بالله بنسخة من كتاب الطبرى فاشتراها منه بمائة دينار . وكان بمكتبة العزيز أكثر من عشرين نسخة من هذا الكتاب منها نسخة بخط يده . كما كان بهذه المكتبة أيضا أكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ومائة نسخة من الجهمرة لابن دريد . وكان العزيز يتردد كثيرا على المكتبة ليتفقدتها ويرى ما أضيف إليها من كتب جديدة وليشير الى أمناء المكتبة بما يقترح شراؤه من كتب ، أو ليختار بعض الكتب التي يود قراءتها في مجالسه الخاصة (٢) . وتنافس الخلفاء الفاطميون والخلفاء العباسيون والأمويون بالأندلس على شراء واقتناء الكتب النادرة فكان الخلفاء الفاطميون يحاولون شراء جميع نسخ الكتب حتى لا يقتنيها الخلفاء الآخرون . وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف . والرفوف مقطعة بحواجز تحوى كتباً في مختلف أنواع العلوم والآداب والفنون .

وسار الخليفة العزيز بالله على سنة أبيه العزيز لدين الله فكان يفتح أبواب قصره للعلماء والطلاب وسمح لهم جميعا بالاطلاع على مكتبة القصر كما عقد في قصره كثيرا من المجالس العلمية والأدبية والمناظرات دعا إليها الفقهاء والعلماء والأدباء مما أدى الى نهضة ثقافية حقيقية .

ومن العلماء الذين نالوا تشجيعا من الخليفة العزيز بالله أبو الحسن على الشاشتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد دخل في خدمة الخليفة العزيز فجعله أمينا لمكتبة القصر وأصبح في مقدمة جلساء الخليفة وندمائهُ ، وقد وضع كتابه المشهور (الديارات) تحدث فيه عن أديرة مصر والعراق والشام والجزيرة .

(١) الخطط ج ١ ص ٤٠٨ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .

ومن هؤلاء العلماء أيضا أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني الذي تخصص في علوم اللغة وخاصة النحو . وقد كلفه الخليفة العزيز بالله بأن يؤلف كتابا « يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد في تأليفه الى الحرف الذي جاء لمعنى وأن يجرى ما ألفه عن ذلك على حروف المعجم (١) » وقد ألف القيرواني كتابه في ألف ورقة ، ومن كتبه أيضا كتاب (التعريض) .

ونبع في عهد العزيز بالله كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي ابن رضوان الطيب الفيلسوف الذي وضع كثيرا من الكتب في الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة وزاد عدد كتبه على السبعين كتابا ، وأصبح في عهد العزيز رئيسا للأطباء . ومن الطريف أن الناس في عهد الفاطميين ، بل والخلفاء أيضا ، كانوا يؤمنون بعلم التنجيم ، وقد رأى علي بن رضوان أن طالعه يدل على أنه خلق ليكون طبيا ولذا اجتهد حتى يحقق ما دله الطالع عليه .

وكان علي بن رضوان من المجددين في صناعته ، ولم يكن عمله مقصورا على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء مثل جالينوس وأبقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار . وكان يدون مشاهداته ويغير ما دلت التجربة على فساده ، ويظهر ما ظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطبيب جشعا كل همه الكسب من صناعته بل كان طبيا انسانا يصرف اهتمامه لاسعاف الملهوف ومساعدة الفقير المحتاج وكانت حياته كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل (٢) .

وجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله في قصره مستشفى امده بعدد من الأطباء يستقبلون المرضى من عامة الشعب يفحصونهم طبيا ويقدمون لهم الدواء مجانا .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٩ .

(٢) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٣ .

ومن المؤرخين المعاصرين للخليفة العزيز بالله والذي اهتم بدراسة عصره المؤرخ المصرى ابن زولاى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) واشهر كتبه هو (فضائل مصر وأخبارها وخواصها) ، ومن كتبه أيضا (قضاة مصر) وهو ذيل لكتاب القضاة لأبى عمر الكندى .

ومن الجغرافيين المعاصرين للعزيز بالله شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وكتابه هو (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) .

وفى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٦) كتب المهلبى للخليفة العزيز بالله كتابا فى الطرق والمسالك وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفا دقيقا وكان علماء الجغرافيا فى القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان الا قليلا جدا . وسمى المهلبى كتابه (العزيزى) نسبة الى الخليفة العزيز بالله . وأصبح هذا الكتاب أهم مصادر الجغرافى ياقوت الحموى عند حديثه عن السودان (١) .

شعراء عصر العزيز بالله :

ظهر فى عهد العزيز بالله كثير من الشعراء فكان العزيز نفسه شاعرا مجيدا كما تميز العزيز ووزيره يعقوب بن كلس بالكرم والاغداق على الشعراء مما دفعهم الى نظم القصائد العصماء .

ومن الشعراء الذين مدحوا العزيز بالله وهو ولى لعهد أبيه الشاعر محمد بن هانىء الذى أصبح مثالا يحتذى به سائر الشعراء فى عصر العزيز بالله . وهذا الشاعر عربى من الأزدي ، ولد فى اشبيلية فى بلاد الأندلس حيث قضى شبابه المبكر ثم اتصل بالقائد جوهر الصقلى الذى قدمه للخليفة المعز . واستعد ابن هانىء للرجيل الى مصر ولكن ما كاد يصل الى برقة حتى أدركته الوفاة فى رجب

(١) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ج ٢ ص ١٠ .

سنة ٣٦٢ هـ وكان المعز يعد ابن هانئ لينافس به الشعراء
العباسيين ولذا أبدى المعز الله لسماع حبا وفاة ابن هانئ فقال :
« هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا
ذلك » .

ومن شعراء العزيز بالله أبو عبد الله محمد بن أبي الجرع . ولقد
بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم في يده فنظم الشاعر
قصيدة يظهر فيها ألمه الشديد لمرض الوزير ويصف ما كان لمنح
العزيز بالله عليه من اثر وفي ذلك يقول :

يد الوزير هي الدنيا فان ألت
رأيت في كل شيء ذلك الالـ
تأمل الملك وانظر فرط علته
من أجله واسأل القرطاس والقلم

وأنشد الشاعر ابن أبي الجرع أيضا :

لولا العزيز وآراء الوزير معـ
تحيفتنا خطوب تشعب الأممـ
فقل لهذا وهذا أنتما شرف
لا أوهن الله ركنيه ولا انهـ

وللشاعر ابن أبي الجرع قصيدة طريفة نظمها وبعث بها الى
أصدقائه ليقدّموا على داره ليتناولوا الطعام قبل حلول شهر
رمضان ، ومن أبياتها :

شعبان قد صار نضوا	ولم نغد فيه لهـ
وليس ذلك منـ	جها ولا كان سـ
فبالـودة الا	بكرت للقصف عـ
حتى نقوم فثرفو	ما خرق الدهـ

ثم يعدد ابن أبي الجرع أنواع الطعام التي سيقدمها لضيوفه ومنها جدى مسمن مشوى وبقول ، وقهوة ، ويفريهم بالحضور فيقول أنهم سيستمعون الى أغاني شجية وسيقدم لهم العطور والزهور ثم يحثهم على عدم الاعتذار فيقول :

فما اعتذارك في أن تغنى زمانك صحوا
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى

وكان الشعراء يحضرون مجالس ابن كلس العلمية ويختتم هؤلاء الشعراء هذه المجالس بانشاد قصائدهم . وبلغ عدد الشعراء الذين وقفوا على قبر ابن كلس عند وفاته أكثر من مائة شاعر ألقى كل منهم قصيدة رثاء عصماء .

ومن شعراء عصر العزيز بالله الشاعر أبو حامد الانطاكي وكان من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب ووصفه الثعالبي (١) . بأنه « نادرة الزمان وجلمة الاحسان » وأنه « أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين » وأقام في مصر زمنا ومدح الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس بقصائد كثيرة ومن شعره الذي يمدح به الخليفة ووزيره (٢) :

لم يدع للعزيز في سائر الأ

رض عدوا الا وأحمد نازه

كل يوم له على نوب الدهر

ر وكر الخطوب بالبذل غار

ذويد شأنها الفرار من البخ

ل وفي حومة الندى كرازه

قد أقلت عن العزيز عداه

بالعطايا وكثرت أنصاره

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) ابن خلكان : وفیات الاميان ج ١ ص ٤٨ .

إمبراطورية العزيز بالله

الصراع بين العزيز والقرامطة حول الشام :

القرامطة طائفة سياسية اتخذت الدعوة الى امامة اسماعيل ابن جعفر بن الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها . وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى أحد دعايتها وهو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ويقال انه سمى قرمط لقصر قامته ورجليه .

وكان القرامطة من الشيعة الاسماعيلية وبدأوا سياستهم بموالاة الفاطميين باعتبارهم زعماء جميع طوائف الاسماعيلية . ثم انقسم القرامطة الى فريقين : أولهما يميل الى الفاطميين ويتطلع في نفس الوقت الى الحكم ويعرفون بالعقدانية ويرون أن تنضوى طائفة القرامطة في سياستها الخارجية والمذهبية تحت لواء الفاطميين . أما الفريق الآخر فيتألف من الطبقة العليا الحاكمة ويرون الاحتفاظ برياسة دولتهم القرمطية الاسماعيلية والاتجاه بسياستهم الى مصالحهم الخاصة ولا يرون بأسا من مخالفة العباسيين السنيين وزاد عداؤهم للفاطميين على مر السنين . وكان لمحاولة الخليفة المعز لدين الله التدخل في شئون القرامطة الداخلية أثره في ازدياد العداء بين القرامطة والفاطميين . كما كان لا يواء المعز لكثير من زعماء الشام الفارين من وجه القرامطة أثره في اثارة سخطهم كما عملت الدولة العباسية على توسيع هوة الخلاف بين الفاطميين والقرامطة .

عمل الفاطميون بعد استقرار دولتهم في مصر على مد نفوذهم الى بلاد الشام من أجل هدم عدوتهم اللدودة الدولة العباسية السنية ، وحتى تصبح للدولة الفاطمية الزعامة في العالم الاسلامي .

ورأى الفاطميون أيضا أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر ، كما رأوا أن في سيطرتهم على بلاد الشام تحقيقا لسياستهم بجعل البحر المتوسط بحيرة فاطمية . كما أن استيلاء الفاطميين على بلاد الشام يمنع تقدم جيوش الدولة البيزنطية جنوبا الى مصر ، كما يرضى شعور المسلمين الذين يطالبون بالجهاد وقتال الروم البيزنطيين ، وكانت بلاد الشام تابعة للدولة الاخشيدية وهى الدولة التى قضى الفاطميون عليها وورثوا ممتلكاتها ، ولذا كان طبيعيا أن يمد الفاطميون نفوذهم على الشام بعد استقرار حكمهم في مصر .

وكان القرامطة قد مدوا نفوذهم الى بلاد الشام واخذوا يناوئون ساداتهم الفاطميين ، وخشى الخليفة المعز من زوال نفوذه عليهم وازدياد نفوذ القرامطة وأبدى ألمه لقيام القرامطة باحتلال دمشق في سنة ٣٥٧ هـ . بعد أن كان القرامطة لا يحاربون الا بوحي من الفاطميين . ولذا اعتبر الفاطميون فتح بلاد الشام نوعا من التحدى للقرامطة والقضاء على نفوذهم ، كما رغب الفاطميون في أن يحققوا للمصريين خاصة وللمسلمين عامة ما جهروا به من محاولة للقضاء على الثوار الدينيين كالقرامطة (١) .

ولهذه الأسباب كلها بعث جوهر الصقلى حملة عسكرية الى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى في أول سنة ٣٥٩ هـ (٢) ونجح ابن فلاح في الاستيلاء على معظم مدن فلسطين والشام وهزم القوات الاخشيدية ثم فتح دمشق بعد مقاومة يسيرة وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة ودعا للخليفة الفاطمى . وأدى فتح الفاطميين لدمشق الى اصطدامهم بالقرامطة فقد ظلت دمشق تدفع للقرامطة فترة طويلة الجزية وحاول القرامطة محالفة الخليفة العباسى المطيع للوقوف معا في وجه الفاطميين ولكن المطيع

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٩٢ .

(٢) المقرئى : العناقا الحنفيا ص ١٦٨ .

لم يرحب بمحالفتهم فقد كان يرى أن القرامطة ملاحدة خارجون على الإسلام ، فقد ساءه اعتداء القرامطة على قوافل الحجاج (١) .
 ودارت حرب عنيفة بين جيش ابن فلاح الفاطمي وجيش الحسن القرمطي الملقب بالأعصم ولحقت الهزيمة بابن فلاح ولقى حتفه وتقدم الأعصم نحو دمشق ففتحها ولعن الخليفة المعز من فوق منبر المسجد الأموي وعلق المؤرخ (أوليري دي ساس) (٢) على ذلك فقال : يؤمن القرامطة بنظرية الحق الإلهي للامام الفاطمي مما يجعلني أعجب لعن الخليفة الفاطمي ، وقد نرجع هذا إلى أن غالبية أهالي دمشق كانوا من غلاة السنيين أعداء الشيعة والقرامطة على السواء وإلى أن القرامطة أصبحوا لا يهتمون بشرف الانتماء إلى أسرة علي بن أبي طالب إلى جانب عدم اهتمامهم بالعلاقات المذهبية .

وزحف الأعصم القرمطي إلى مصر ووصل إلى عين شمس قرب القاهرة وحفر جوهر حول القاهرة خندقا عميقا أقام عليه بابين من الحديد . وتطوع كثير من المصريين لصد خطر القرامطة وأرغمهم جوهر على الانسحاب إلى القلزم (السويس الحالية) (٣) وبعث الخليفة المعز لدين الله من المغرب جيشا لتدعيم جيش جوهر الصقلي فاضطر القرامطة إلى الانسحاب وعجل المعز بالقدوم إلى مصر .

وبعد قدوم المعز إلى مصر بعث برسالة إلى الأعصم يهدده فيه ويصفه ببعض النعوت منها : « الفادر الخائن الناكث الحائد عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة .. » وأبدى المعز استيائه من التقارب بين القرامطة والعباسيين وندد المعز باقدام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) O'Leary : A Short Hist, of the Fatimid, Khali fate, P:190, (٢)

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٥ ص ١١٥ - ١١٨ .

الأعصم على فتح دمشق وقتل قائده ابن فلاح ، ثم طلب المعز من الأعصم أن يسلم نفسه هو وأتباعه من القرامطة (١) .

وأبدي الأعصم عدم اكتراث برسالة المعز ورد برسالة موجزة قال فيها : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على اثره والسلام » (٢) - وعاد الأعصم غزو مصر ووصل الى عين شمس فى ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ ونجح المعز فى استمالة الطائيين أبرز جند القرامطة بالأموال مما أدى الى هزيمة القرامطة وانسحابهم ثم نجح المعز فى استعادة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام سنة ٣٦٣ هـ منتهزا فرصة النزاع بين أمراء القرامطة .

وفى أواخر عهد المعز لدين الله لم يستقر الحكم الفاطمى فى دمشق وثاوت الفتنة بين أهالى دمشق والجند الفاطميين المغاربة ثم مات المعز تاركا أمر الشام فى يد ابنه الخليفة العزيز بالله .

وفى مطلع خلافة العزيز بالله تغيرت الأوضاع فى بلاد الشام فقد ادت الاضطرابات التى سادت مدينة دمشق الى اضعاف الحكم الفاطمى فيها . وقد مهدت هذه الحالة السبيل لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين بلاد الشام واستقرارهم فيها . وبذلك واجه الفاطميون عنصرا جديدا قام بدور هام فى مناهضة نفوذهم فى بلاد الشام (٣) .

وكان أفتكين هذا الذى قام بدور كبير فى الشام فى عهد العزيز بالله يدعى أبو منصر التركى الشرايى بدأ حياته فى خدمة معز الدولة أحمد بن بويه وترقى فى مناصب الدولة حتى تولى قيادة جند الأتراك فى بغداد فى عهد عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعراق (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) . وثار الأتراك بزعامة أفتكين على بختيار

(١) أنظر نص الخطاب فى كتاب انعاظ الحنفا للمقريزى ص ٢٥٨ - ٢٦٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢١١ .

(٣) جمال سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .

فاستعان بختيار بابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة وحلت
الهزيمة بالأتراك فساروا الى بلاد الشام واستقروا بها . وساعدهم
على ذلك انتشار الاضطرابات والفوضى في بلاد الشام . وكان اهل
دمشق يضمرون للفاطميين البغضاء لانهم كانوا لا يزالون على حبههم
لبنى امية السنين مما جعل الأمور ممهدة لأفتكين وبدأ دور
جديد من الصراع حول بلاد الشام في حياة كل من الفاطميين
والقرامطة .

بين العزيز بالله وأفتكين التركي :

اعلن اهالي دمشق الثورة على ولاة الخليفة العزيز بالله
وأخرجوهم من مدينتهم ودعوا أفتكين التركي فلبى النداء وقام
بالخطبة للخليفة العباسي الطائع وتعهد له شيوخ دمشق بمساعدته،
وضمن أفتكين لهم الحماية (١) ثم مد أفتكين نفوذه الى كثير من
مدن الشام مثل صيدا وعكا وطبرية . وأراد أفتكين أن يفوز بتحالف
بنى بويه ولكنهم رفضوا أن يمدوا ايديهم اليه فاتجه نحو قرامطة
البحرين .

ورأى الخليفة العزيز بالله بعد أن انتهى من تدعيم نفوذه في
مصر ، أن يعيد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام . واستشار العزيز
وزيره يعقوب بن كلس فيما يتبع نحو تحقيق هذا الهدف فنصحه
بأن يبعث جيشا فاطميا بقيادة جوهر الصقلي لاسترداد دمشق .

وعلم أفتكين بزحف الجيش الفاطمي الى دمشق وخشى على
هذه المدينة مما يحل بها من خراب نتيجة هجوم جيش جوهر
فاجتمع بوجوه اهل دمشق وأبدى لهم استعدادا في الجلاء عن
بلدتهم ليجنبهم شر القتال ، ولكنهم طابوا منه الاستمرار في البقاء
معه فنزل عند طلبهم وبدأ يستعد لمواجهة الجيش الفاطمي .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ .

وصل جوهر الى دمشق في ذى القعدة سنة ٣٦٥ هـ وحاصرها طويلا وأبدى أفتكين شجاعة وصبرا ، ولكن أهالى دمشق ضاقوا بالحصار وطلبوا من أفتكين أن يكتب الى الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ببلاد البحرين يطلب نجده ولبي الزعيم القرمطى النداء وقدم على رأس جيش من القرامطة .

ورأى جوهر أنه أصبح بين عدوين قوين فرأى أن ينهى حصاره لدمشق ويرحل الى الرملة . وتتبعه أفتكين والقرامطة فانسحب جوهر الى عسقلان . ولما كانت خطوط الامدادات والتموين بين جيش جوهر ومصر طويلة فقد رأى أن يفاوض أفتكين فى الهدنة .

التقى جوهر بأفتكين فقال جوهر له : « قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الاسلام وحرمة الدين وقد طالت هذه الفتنة وأريقَت فيها الدماء ونهبت الأموال ونحن المؤاخدون بها عند الله تعالى ، وقد دعوتك الى الصلح والطاعة والموافقة وبذلت لك الرغائب فأبيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة فراقب الله تعالى وراجع نفسك وغلب رأيك على هوى غيرك » .

وكان من العسير أن يعود أفتكين لطاعة الفاطميين بعد قدوم القرامطة ولذا قال : « أنا والله واثق بك فى صحة الرأى والمشورة منك لكنى غير متمكن مما تدعونى اليه بسبب القرمطى الذى أحوجتنى أنت الى مداراته والقبول منه » (١) .

ثم اتفق جوهر وأفتكين على الصلح ، وتعهد جوهر بأن يؤدى الى أفتكين مبلغا من المال وأن يخرج من تحت سيف أفتكين ورمح الحسن بن أحمد القرمطى وعاد جوهر الى مصر .

وفى القاهرة اجتمع جوهر بالخليفة العزيز بالله وأطلعاه على تطورات الأحداث التى أدت الى عقد هذا الصلح المهيى للفاطميين .

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ .

ورأى العزيز أن يتخذ موقفا حاسما يحفظ كرامة الدولة الفاطمية
فعمزم على أن يقود بنفسه جيشا وجعل جوهر على مقدمته . وأدرك
أفتكين والقرامطة خطورة الموقف فاعدوا جيشا كثيفا ضموا اليه
اعدادا من العرب وتحصنوا في الرملة .

وفي الرملة دارت حرب عنيفة بين الجيش الفاطمي وجيش
أفتكين والقرامطة وقد شاهد العزيز في هذه الحرب من شجاعة
أفتكين ما أثار إعجابه فبعث العزيز برسول الى أفتكين يحثه على
الدخول في طاعته ويوعده بأن يوليه الخليفة حكم الولايات ويجعله
مقدم جنده ومستشاره في دولته ويدعوه الى لقاء الخليفة .

والتقى رسول العزيز بأفتكين ولكن أفتكين أبدى اعتذاره عن
قبول ما عرضه الخليفة عليه وقال : قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا
القول لسارعت وأطعت ، وأما الآن فلا يمكن الا ما ترى !

وعادت الحرب من جديد قرب الرملة ولحقت الهزيمة بأفتكين
والقرامطة وقبض الفاطميون على أفتكين . ووصف ابن القلانسي (١)
لقاء أفتكين بالعزيز فذكر أن أفتكين لما دخل على العزيز في سرادقه
ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه وحمل الى دست قد
نصب له ليجلس عليه . فلم يكن أفتكين ازاء ما لقيه من تسامح
العزيز الا أن رمى بنفسه الى الأرض والقى ما على رأسه وبكى بكاء
شديدا وقال : « ما استحققت الأبقاء على فضلا عن العفو الكريم
والإحسان الجسيم » وأمتنع أفتكين عن الجلوس في الدست ، وقعد
بين يدي العزيز والبسه جوهر من ملابس العزيز وهذا روعه فجدد
الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهره على ما أبداه من تسامح وكرم
وعفا الخليفة عن أفتكين وصحبه الى مصر وعامله معاملة كريمة
وخصص له دارا يقيم فيها (٢) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٨ وما بعدها .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٠ .

اشاد المؤرخ (آدم متر) بموقف الخليفة العزيز بالله من افتكين التركي فقال : « وسار العزيز بنفسه لمحاربة افتكين التركي فهزمه واسره واستنقذه من بين يدي آسريه بعد أن كاد يموت ضربا ولكما وأمنه على نفسه ، ودفع اليه خاتمه ، واستسقى التركي ماء فأمر العزيز باحضار قدح شراب جلاب فلما أتى بالقدح توقف التركي عن الشرب خوفا من أن يكون في القدح سم قاتل ولاحظ العزيز ذلك فأخذ القدح وشرب منه ثم أعطاه ليشرب وأفرد له خيمة وأمر بأن يحمل اليه جميع ما يحتاج اليه وحمله على دوابه وأمره بالركوب على مركبه ، وسأل عن أناس ممن يأنس بهم فالتمس احضار قوم من أصحابه فأتى اليه بهم من بين الأسارى . ولما رجع العزيز الى مصر ، تقدم الى وجوه دولته وقواده وأمرائه باكرام التركي واجلاله » (١) .

أما الحسن بن أحمد زعيم القرامطة فقد انسحب مهزوما الى طبرية وهناك قدم عليه رسول الخليفة العزيز بالله يدعو الى لقاء الخليفة ويؤمنه على نفسه ولكن الزعيم القرمطي رفض هذه الدعوة ورحل الى الاحساء مع جيش القرامطة بعد أن اتفق معه العزيز على أن يدفع له أتاوة قدرها عشرون ألف دينار طوال حياته (٢) .

وهكذا اخفقت الحركة التي اثارها افتكين التركي في بلاد الشام كما زال نفوذ القرامطة في هذه البلاد واضطروا الى الجلاء عنها ، مما سهل على الفاطميين في عهد العزيز بالله استعادة دمشق الى حوزتهم (٣) .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم حتى أن جماعة منهم تاروا على آل الحسن الأعصم واضطروهم الى الهجرة الى جزيرة « أوال » حيث انتقم منهم أعداؤهم واتخذ الخليفة

(١) متر : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ ج ١ ص ٢٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٩ .

(٣) سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٤٤ .

العزير الذى كان اليد المحركة التى أوقعت الاضطراب فى صفوف القرامطة من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وأعادتهم ثانية الى حظيرة الفاطميين (١) واستمر ولاء القرامطة للفاطميين حتى زالت دولتهم من جزيرة (أوال) سنة ٤٥٨ هـ ومن البحرين بعد أن قضى السنيون عليهم فى سنة ٤٧٠ هـ . ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٧٥ هـ حين نجح العزير بالله فى هزيمتهم بالشام .

نفوذ العزير بالله فى الجزيرة العربية :

كان النفوذ السياسى فى الجزيرة العربية عامة وفى بلاد الحجاز خاصة للدولة العباسية حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى الى مصر فعمل على بسط نفوذه على البلاد المقدسة فى الحجاز حتى تتحقق للدولة الفاطمية زعامة العالم الاسلامى ، وكانت الدولة الفاطمية تعتبر نفسها وريثة للدولة العباسية المتداعية .

وانتهز المعز لدين الله فرصة نزاع قام بين الأشراف العلويين بنى الحسين وجعفر بن أبى طالب فتدخل فى هذا النزاع ونجح فى عقد الصلح بين الطرفين وأغدق عليهم جميعا صلاته وعطاياه فقام الحسن بن جعفر أمير مكة بالدعاء للخليفة المعز على منابر مكة وبعث المعز اليه برسالة يقره فيها على إمارته (٢) .

ظلت الخطبة تقام للمعز فى كل من مكة والمدينة حتى توفى سنة ٣٦٥ هـ وخلفه ابنه العزير بالله فانقطعت الخطبة له فى بلاد الحجاز فبعث اليها سنة ٣٦٧ هـ بادريس بن زيرى الصنهاجى أمرا على الحج فاستولى على الحرمين وقام بالخطبة للخليفة العزير بالله .

على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقرا فى مكة والمدينة طوال عهد العزير فقد دعا أمير حاج العراق لعضد الدولة بن بويه

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ .

(٢) المقرئى اتماظ الحنفا ص ١٤٦ .

واضطرب العزيز سنة ٣٨٠ هـ الى ارسال حملة الى بلاد الحجاز
ضيقت الحصار على اهلها وانتهى الأمر باعادة الخطبة للعزيز على
منابر مكة والمدينة وانقطعت الدعوة للعباسيين بهاتين المدينتين .
وظل طاهر بن مسلم وهو من بنى الحسين أمير المدينة مواليا
للفاطميين ، كما ظل أمير مكة عيسى بن جعفر وهو من بنى الحسن
على ولائه للخليفة العزيز بالله الفاطمي (١) .

أما بلاد البحرين فقد سيطر عليها القرامطة مما أثار المتاعب
للدولة العباسية الى جانب مشاكلها الداخلية ، ولذا شغل القرامطة
العباسيين عن وقف فتح الفاطميين لمصر . وكانت العلاقات في أول
الأمر طيبة ودية بين قرامطة البحرين والدولة الفاطمية اذ يشتركون
جميعا في المذهب الاسماعيلي . ولكن العلاقات ساءت كثيرا بعد
انقسام القرامطة الى فريقين أحدهما بزعامه بيت أبي طاهر وثانيهما
بزعامه بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الأعصم .
وقد مر بنا تطورات العداء والصراع بين الأعصم والفاطميين .
وشهدنا كيف نجح الخليفة العزيز بالله في اجلاء القرامطة عن بلاد
الشام فاستقروا بعد ذلك في بلاد البحرين (٢) .

أدت وفاة الحسن الأعصم سنة ٣٦٧ هـ الى قيام الانقسامات
الداخلية بين القرامطة في بلاد البحرين وحفلت هذه البلاد
بالاضطرابات وأبدى القرامطة سخطهم على سياسة الأعصم الذي
خاصم الفاطميين وهادن العباسيين وانتهم بيت أبي طاهر الفرصة
لينتزعوا السلطة في بلاد البحرين ونجح زعيمان من هذا البيت
وهما جعفر واسحق في الوصول الى الحكم ، وأعلنا ولاءهما
للفاطميين وعداءهما للعباسيين وقام القرامطة في عهد العزيز بالله
سنة ٣٧٥ هـ بهجوم على الكوفة ولكن البويهيين نجحوا في رد

(١) سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ١٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٨ .

القرامطة عن بلاد العراق فعادوا الى بلاد البحرين ولم يعاودوا هذه المحاولة ثانية وانطوا على انفسهم .

وامتد نفوذ الخليفة العزيز بالله في الجزيرة العربية ايضا الى بلاد اليمن ، فقد دخل زعيم طائفة الاسماعيلية بهذه البلاد ابن رحيم الملقب بابن جفتم في طاعة العزيز بالله الفاطمي وظل على ولائه للعزيز حتى شعر بقرب وفاته فاستخلف على اتباعه من الاسماعيليين يوسف بن الأسد ، كما دعا امير صنعاء عبد الله بن قحطان بن ابي يعفر سنة ٣٧٩ هـ للخليفة العزيز بالله من فوق منابر صنعاء .

نفوذ العزيز في العراق :

ادى ظهور القرامطة في جنوب بلاد العراق ، والتشابه بين دعوتهم ودعوة الاسماعيلية الى جذب كثير من اهالي الولايات العباسية الى اعتناق المذهب الاسماعيلي فصارت بلاد السواد تموج باتباع الاسماعيلية .

وكان لضعف سلطة الخلفاء العباسيين منذ اوائل القرن الرابع الهجري بسبب ازدياد نفوذ القواد من الاثراك واستقلال الأمراء بولاياتهم واستبداد البويهيين بأمور الخلافة اثره في تشجيع الفاطميين على ارسال دعائهم الى بلاد الدولة العباسية لنشر الدعوة لهم ، كما حفزهم الى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة العالم الاسلامي منها (١) .

وكان الخليفة المعز لدين الله يأمل في فتح العراق ، كما فتح مصر وعبر قبيل وفاته سنة ٣٦٥ هـ عن هذه الآمال في حديث له مع رسول الامبراطور البيزنطي الذي كان قد قدم لزيارة القاهرة فقال المعز له : اذكر اذ اتيتني رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن

(١) سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٧٦ .

على وأنا بمصر مالكا لها ؟ فقال الرسول : نعم . فقال المعز : وأنا أقول لك لتدخلن على بغداد وأنا خليفة (١) .

ضعفت الدولة العباسية واستأثر البويهيون بالنفوذ الحقيقي مما هيا الفرصة لانتشار المذهب الفاطمي في بلاد العراق فقد اعتنق البويهيون المذهب الشيعي على مبادئ الزيدية ونظروا الى الخلفاء العباسيين على أنهم قد اغتصبوا الحق الشرعي للأئمة العلويين وفكر زعيم البويهيين معز الدولة بن بويه في نقل الخلافة من العباسيين الى المعز لدين الله باعتباره من الأسرة العلوية الفاطمية . ولكن خاصته لم توافق على مشروعه وأثاروا مخاوفه وشكوكه فقالوا له : « ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » (٢) .

ولكن معز الدولة بن بويه وان كان قد عدل عن تحويل الخلافة الى المعز لدين الله الفاطمي وفضل الاستمرار في استئثاره بالسلطة دون الخليفة العباسي السني الا أنه سمح للدعاة الفاطميين بنشر مذهبهم في بلاد العراق .

وفي خلافة العزيز بالله توثقت صلات الصداقة والمودة بين عضد الدولة ابن ركن الدولة وبينه (٣٧٦ - ٣٧٢ هـ) وتبادلا الرسائل الودية واعترف هذا السلطان بأمامة الخليفة العزيز .

وكان لهجوم البيزنطيين المستمر على الأراضي العباسية والفاطمية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية اثره في توثيق الصلات بين العزيز والبويهيين حتى يتعاونوا جميعا في صد البيزنطيين .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٩ .

وجاء في رسالة الخليفة العزيز بالله الى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ :
« ان رسولك وصل الى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ
اليك فادى ماتحملة من اخلاصك في ولاء أمير المؤمنين ومودتك
ومعزتك بحق امامته وصحبته لابائه الطائعين الهادين المهديين
فسر أمير المؤمنين بما سمعه منك ووافق ما كان يتوسمه فيك وانك
لا تعدل عن الحق .. » (١) .

واستقبل عضد الدولة رسول الخليفة استقبالا حافلا ،
واحتشد كبار رجال الدولة العباسية للترحيب بهذا الرسول ،
وبعث عضد الدولة برده على رسالة العزيز ، فأعلن ولاءه للخليفة
العزيز باعتباره من آل الرسول صلى الله عليه وسلم وأبدى
استعداده لتنفيذ أوامره .

وأبدى المؤرخ أبو المحاسن تعجبه من رسالة عضد الدولة الى
العزيز بالله الفاطمي ، رغم أنه أحد رجال الدولة العباسية السنية ،
عدوة الدولة الفاطمية الشيعية فقال أبو المحاسن : « واني أتعجب
من كون عضد الدولة كان اليه أمر الخليفة العباسي ونهيه ويقع في
مثل هذا لخلفاء مصر ، وقد علم كل أحد ما كان بين بني العباس
وخلفاء مصر من الشنآن . وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك
الا عجزا عن مقاومته » .

ولكن العلاقات سرعان ما ساءت بين العزيز بالله الفاطمي وعضد
الدولة البويهى حتى أن عضد الدولة أراد غزو مصر واستردادها
من الفاطميين بعد أن أدرك خطر الدولة الفاطمية على سلطان بني
بويه . ولكن هذا المشروع لم يتم بسبب وفاة عضد الدولة . ولكن
البويهيين استمروا على تأييد المذهب الشيعي والعمل على نشره
في بلاد العراق .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

العلاقات بين العزيز بالله والدولة البيزنطية :

كان البيزنطيون في عصر الخليفة المعز لدين الله قد اتخذوا من النزاع بين الفاطميين والقرامطة في بلاد الشام فرصة لمواصلة هجومهم على هذه البلاد . فتقدم الامبراطور البيزنطي (حنا زيمسكيس) من انطاكية الى حمص ثم الى بعلبك ، واضطرت دمشق الى التسليم ودفع الجزية الى الامبراطور . كما استولى الامبراطور أيضا على طبرية وقيسارية ثم بيروت وصيدا . ولما حاول الامبراطور فتح طرابلس ونجح أهلها بمساعدة الأسطول الفاطمي في هزيمة الامبراطور الذي رأى الانسحاب الى انطاكية وما لبث أن توفي في القسطنطينية بعد فترة قصيرة .

أرسل الخليفة العزيز بالله في سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو أراضي الدولة البيزنطية ولكن هذه الحملة لم تحقق أهدافها إذ نشب حريق في الأسطول المصري قضى على كثير من سفنه . ثم قدم الى مصر رسل من الامبراطور البيزنطي (باسيل الثاني) يحملون كثيرا من الهدايا الفاخرة للعزيز بالله وطلبوا منه عقد الصلح فوافق العزيز بالله على طلبهم .

نصت شروط الصلح بين العزيز بالله والدولة البيزنطية على :

- ١ - اطلاق سراح أسرى المسلمين في الدولة البيزنطية .
- ٢ - الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة .
- ٣ - حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .
- ٤ - عقد الهدنة بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية سبع سنين (١) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٢ .

وعلق المؤرخ (ستانلى لينبول) على هذا الصلح فقال :
تحسنت العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية فى أواخر
عهد الخليفة العزيز بالله وبعث الامبراطور البيزنطى بكثير من هداياه
الفاخرة منها ٢٨ صينية من الفضة ، واطباق محلاة بالذهب .

ولكن هذه الهدنة لم تؤد الى انتهاء العداء بين الدولتين
الفاطمية والبيزنطية فقد استنجد الحمدانيون فى حلب بالامبراطور
البيزنطى باسيل الثانى لصد الجيش الفاطمى الزاحف الى الشام .
وامدهم الامبراطور بجيش ولكن الفاطميين نجحوا فى هزيمة
الحمدانيين والبيزنطيين سنة ٣٨١ هـ .

ورأى العزيز بالله أن يتوج نصره بالاستيلاء على حلب واستنجد
أميرها مرة أخرى بالامبراطور البيزنطى فخرج بنفسه على رأس
جيش ، ففتح حمص ، وزحف الى طرابلس ولكنه أخفق فى فتحها ،
فأثر الانسحاب الى القسطنطينية سنة ٣٨٥ هـ بعد أن مد نفوذه
على معظم مدن ساحل الشام .

ورأى العزيز بالله أن يخرج بنفسه للقضاء على النفوذ البيزنطى
فى بلاد الشام فأعد حملة برية وأمر وزيره عيسى بن نسطورس
بانشاء أسطول يسير بحرا الى طرابلس ولكن سفن هذا الأسطول
أحترقت فى ميناء المقس بالقاهرة وأنهم المصريون الروم المقيمين
بالقاهرة قرب دار الصناعة بالمقس بأنهم أشعلوا النيران فى السفن
فقتلوا عددا كبيرا منهم وأمر العزيز وزيره بانشاء أسطول آخر .
حتى اذا تم اعداد سفنه أبحرت الى البحر المتوسط وهبت عاصفة
عنيفة أطاحت بمعظم هذه السفن ووقع رجالها من الفاطميين فى
الأسر . أما الحملة البرية فقد خرج على رأسها العزيز بنفسه الى
بلبيس ولكن اشتد المرض عليه فتخلف بها وما لبث أن توفى
سنة ٣٨٦ هـ (١) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٢ .

العلاقات بين العزيز بالله والدولة الأموية بالأندلس :

كان العداء بين بنى أمية وبنى هاشم تقليديا ومتوارثا بدأ في العصر الجاهلي واستمر في العصر الإسلامي وكان العلويون وهم من بنى هاشم ، يعتقدون أن الأمويين قد اغتصبوا حقهم في الخلافة وأقاموا دولتهم في دمشق بالشام . ونجح الأمويون في إقامة دولة لهم بالأندلس بعد سقوط الدولة الأموية بالشام وقيام الدولة العباسية بالعراق وظهر العداء واضحا بين العاويين والأمويين بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب ثم مصر نتيجة الاختلاف المذهبي، وقرب الدولتين بعضهما من بعض .

وبعد قيام الخلافة الفاطمية أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة في بلاد الأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وأصبح في العالم ثلاث خلافات : الخلافة العباسية في المشرق والخلافة الفاطمية في المغرب والخلافة الأموية في الأندلس . وكان الأمويون بالأندلس يأمرؤن خطباءهم بسب الفاطميين من فوق المنابر كما كان يفعل الخلفاء الأمويون في دمشق حينما كانوا يسبون آل على بن أبي طالب .

ومن عوامل العداء بين الفاطميين والأمويين ما كان من اتخاذ عبد الرحمن الناصر في أفريقية الشمالية بعض المدن ذات الموقع الاستراتيجي ليجعلها مركزا يغير منها على قلب الدولة الفاطمية في بلاد الأندلس أو على الأقل يستطيع أن يدفع منها خطر الفاطميين إذا أغاروا على بلاده .

وكان المعز لدين الله باعتباره خليفة علويا يريد القضاء على الخلافتين السنيتين فحاول القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس حتى إذا أدرك صعوبة تحقيق هذا الأمل اتجه نحو الدولة العباسية فانتزع منها مصر وبلاد الشام ثم امتد نفوذ الخليفة العزيز بالله إلى الجزيرة العربية وبلاد العراق .

وفي الحقيقة كان الصراع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس صراعا على زعامة المسلمين الروحية والسياسية ورغبة الخلفاء الفاطميين في الانفراد بهذه الزعامة . ولذا حرص الخليفان المعز والعزیز على أن يصبغا دولتهما بالعظمة والأبهة . واشتهر الخليفان بالتقوى والورع والاهتمام برعاياهما بينما أنصرف كثير من الخلفاء العباسيين والأمويين الى اللهو والمجون . وحرص الخليفان على اثبات نسبهما دائما الى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول عليهما السلام ، حتى يتفوقا على الخلفاء العباسيين والأمويين بالأندلس لأن الفاطميين والأمويين اقرب الى الرسول من أبناء عمهم العباسيين ومن الأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من علي وأبنائه .

وكما كان الخلفاء العباسيون يتراسلون مع الأمويين بالأندلس برسائل تحوى الهجاء والسباب فقد سار الخلفاء الفاطميون على هذه السياسة . فقد تبادل الخليفة العزيز بالله الفاطمي والخليفة الأموي بالأندلس الحكم المستنصر رسائل حوت أبياتا من الشعر وعبارات الهجاء .

كتب الخليفة الحكم المستنصر الأموي في أول رسالته الى العزيز بالله هذا البيت :

السنا بنى مروان كيف تقلبت

بنا الحال أو دارت علينا الدوائر؟

ورد العزيز بالله برسالة هجاء مماثلة جاء في أولها هذا البيت :

إذا ولد المولود منا تهلت

له الأرض واهتزت اليه المنابر

وعمل الخليفة الأموي الحكم المستنصر على انتزاع بلاد المغربين الأقصى والأوسط من الفاطميين فبعث بجيش استولى على هذه البلاد وخطب له على منابرها وتوقفت الخطبة للخليفة الفاطمي كما قضى على نفوذ الأدارسة العاويين في منطقة الريف .

نفوذ العزيز بالله في المغرب وصقلية :

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب على اكتاف الكتامين والصنهاجيين حتى اذا انتقلت الدولة الى مصر ، لم يكن بد من أن يستخلف المعز صنهاجة التي اخلصت كثيرا للفاطميين فولى ولكن ابن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان هذا نواة قيام دولة بنى زيرى في المغرب .

ولكن سيادة الفاطميين لم تنزل عن بلاد المغرب برحيلهم الى مصر لأن بنى زيرى أسسوا دولة تمتعت باستقلال ذاتي ودخلت في دائرة الامبراطورية الفاطمية ودانت بالتبعية للخليفة الفاطمي بالقاهرة . وخطب للفاطميين على منابر المغرب وضربت السكة بأسمائهم . كما كان بنو زيرى يرسلون الجزية الى مصر في كل سنة (١) .

واستمر ولاء بنى زيرى للدولة الفاطمية في عهد الخليفة العزيز بالله ، فاستمر ورود الجزية وكتب العزيز الى بلكين يأمره بمساعدة الحسن الادريسي في حربه مع الأمويين بالمغرب . كما أرسل الى المنصور بن بلكين يطلب منه عزل أحد القضاة فنفذ أمره في الحال وحمل القاضي الى مصر وهو على فراش المرض . وكان الخلفاء الفاطميون يطلبون مساعدة بنى زيرى اذا احتاجوا اليها .

كانت جزيرة صقلية تتبع الدولة البيزنطية حتى فتحها الأغالبة الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين في سنة ٢١٢ هـ . وانتشر الاسلام واللغة العربية في جزيرة صقلية واصبحت صقلية معبرا تعبر منه الحضارة العربية الاسلامية الى القاهرة الأوربية . وظلت صقلية خاضعة للأغالبة الى سنة ٢٩٦ هـ حتى قامت الدولة الفاطمية فثار أهالى صقلية على الأغالبة وأعلنوا طاعتهم للفاطميين وحاول العباسيون عبثا أن يبعدوا النفوذ الفاطمي عن جزيرة صقلية

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٢ .

بينما حرص الفاطميون دائما على أن تكون لهم السيادة في صقلية لما اشتهرت به من خصوبة وثروة معدنية الى جانب موقعها الاستراتيجي الممتاز ، وأراد الفاطميون أن تكون صقلية نقطة ارتكاز يمدون منها نفوذهم شرقا وغربا وحتى يصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية (١) .

برزت الأسرة الكلبية في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في جزيرة صقلية ونجح أمير صقلية الحسن الكلبى في اخضاع جميع الروم فيها الى النفوذ الفاطمى مما جعل الامبراطور البيزنطى يبعث جيوشه الى صقلية وانتصر الحسن الكلبى على البيزنطيين بل قام بغزو جنوب ايطاليا . وحاول البيزنطيون غزو صقلية مرة أخرى فكان نصيبهم الاخفاق أيضا .

وتولى حكم الدولة البيزنطية امبراطور قوى هو (تقفور فوكاس) وكان قد انتصر على العباسيين والحمدانيين وأراد أن يشغل الفاطميين عن التطلع الى بلاد المشرق فأعد اسطولا ضخما وجيشا كبيرا بلغ عدد جنده أكثر من خمسين ألف جندي ولكن الجيوش الفاطمية نجحت في هزيمة البيزنطيين واستسلمت جميع مدن صقلية التى كانت تارت على الحكم الفاطمى واضطر البيزنطيون الى أن ينشدوا صداقة الدولة الفاطمية وخاصة بعد ظهور خطر جديد يهدد الدولة البيزنطية وهو رغبة الامبراطور أوتو الأكبر في توحيد ايطاليا والقضاء على النفوذ البيزنطى والفاطمى . ولذا رأى الامبراطور البيزنطى تقفور فوكاس أن يستعين بالفاطميين في دفع الخطر الجرمانى عن ممتلكاته في ايطاليا وعقد الصلح بين الخليفة المعز وتقفور فوكاس .

وبعد موت الحسن بن أحمد الكلبى سنة ٣٥٤ هـ اضطرب أمر جزيرة صقلية ورأى الخليفة المعز أن يتخلص من الأسرة الكلبية القوية

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٢٠٧ .

حتى لا تستأثر بالسلطة دونه وخاصة بعد اطمئنانه الى توقف
اغارات البيزنطيين ، ولكن المعز عدل عن هذه الفكرة بعد ثورة أهالى
صقلية على والى الفاطمى واضطر المعز الى تولية ابى القاسم
ابن الحسن الكلبى .

وفى عهد الخليفة العزيز بالله توقفت السياسة الحكيمة التى
اتبعها الامبراطور البيزنطى (نقفور فوكاس) الذى تحالف مع
الفاطميين لمواجهة الخطر الجرمانى فقد تولى امبراطور بيزنطى
جديد هو (حنا زيمسكيس) الذى حاد عن هذه السياسة وتحالف
مع الامبراطور اوتو الأول ، وبدأ صراعا عنيفا مع الفاطميين وقد
تحدثنا عن ادوار هذا الصراع عند حديثنا عن علاقات العزيز
بالله بالدولة البيزنطية . وعمل أبو القاسم الكلبى على تحصين
جزيرة صقلية لمواجهة الأخطار المتوقعة .

العزيز بالله في قصره

القصر الشرقي الكبير :

شيد جوهر الصقلي ، فاتح مصر ، القصر الشرقي الكبير ليقم فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عند قدومه الى مصر ، ويذكر المؤرخ المقرئ أن المعز أمر قائده جوهر ببناء هذا القصر ، وشرح له تفاصيل البناء ، وكان يسمى بالقصر المعزى ، وأصبح مقرا للخليفة (١) . وبدأ جوهر في انشاء هذا القصر في نفس اليوم الذي وضع فيه أساس القاهرة ، أى في يوم الأربعاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وانتهى من بنائه وركب أبوابه في يوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وبنى حوله سورا كبيرا في سنة ٣٦٠ هـ .

ولما قدم المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، كان جوهر قد فرغ من بناء هذا القصر ، فأصبح مسكنا للخليفة ومركزا للحكم ، ويعقد فيه (مجلس الملك) ويحوى دواوين الحكومة ودور السلاح ، وكان يحوى كثيرا من الممرات السرية .

ووصف المقرئ الحياة في هذا القصر فقال : « ولا يركب أحد في القصر الا الخليفة ، ولا ينصرف ليلا ونهارا الا كذلك . وله في الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الاناث ، للجواز في السرايب القصيرة الاقباء ، والطلوع على الزلاقات الى

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٨٤ .

أعالي المناظر والأماكن ، وفي كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خفية من حدوث حريق في الليل » (١) .

ووصف الرحالة ناصر خسرو هذا القصر فقال أنه كان في وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها ، وكان يحرسه في الليل خمسمائة فارس من الفرسان وخمسمائة حارس من الرجالة ، وكانت أسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة . وكان بالقصر الوف من الخدم والنساء والجواري ، وله عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود إلى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا ليصل إلى القصر الآخر . وكان صاحب العسس يطوف كل ليلة حول القصر في ألف رجل بالبطول والبوقات في ملابس زاهية .

واشتهر القصر الشرقي الكبير بالفخامة ، بحيث اعتقد البعض أنه فاق قصر (لابيرانت) أو (قصر التيه) الذي شيده امنحبت الثالث (١٨٠١ ق . م .) أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة مقرا لحكمه بالفيوم ، والذي بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف ، على أن شهرة هذا القصر قد تضاءلت أمام شهرة القصر الشرقي الكبير ، الذي بلغ عدد حجراته أربعة آلاف حجرة .

وأصبح هذا القصر أشبه بمستعمرة كبيرة ، حتى أن صلاح الدين الأيوبي لما قضى على الدولة الفاطمية في أواخر القرن السادس الهجري ، واستولى على هذا القصر ، وجد فيه أكثر من اثني عشر ألف امرأة (٢) .

وقد استمر القصر الكبير دارا لخلفاء الفاطميين ، منذ أقام فيه المعز لدين الله في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ،

(١) الخطط ج ١ ص ٢٨٧ .

(٢) المعز لدين الله ص ٢١٨ .

وهو القصر الذى عاش فيه العزيز بالله منذ أن قدم مع أبيه الى مصر ، ثم عاش فيه ، وحكم منذ دولته طوال عهد خلافته .

وصف المقرئى القصر الشرقى الكبير ، فذكر أنه يشتمل « على ما فيه من عين وورق ، وجوهر ، وحلى وفرش وأوانى وثياب وسلاح وأسقاط وأعدال وسروج ولحم ، وبيت المال بحاله بما فيه ، وفيه جميع ما يكون للملوك » (١) وذكر المقرئى أيضا أنه كان يعلق فى هذا القصر « ستور الديباج شتاء والديبى صيفا ، فرش الشتاء بسط الحرير ، عوضا من الصوف ، مطابقا لستور الديباج . وفرش الصيف مطابقا لستور الديبى ، ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل » (٢) .

رسم (راقيس) تصميم القصور الفاطمية ، وبين دخالها مستعينا بوصف المقرئى . ووفقا لما جاء فى أبحاثه القيمة ، نجد أن القصر الشرقى العظيم كان يحتوى على الأخص على ثلاثة مبان كبيرة مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تكون فى مجموعها ثلاثة أرباع المربع ، أما الجزء أو الربع الباقى ، فكان يوجد فيه قصر الاحتفالات ، وهو مكان مكشوف يقع بين القصر العظيم وقصر الوزراء ، حيث كان الناس يحتفلون بالأعياد . وكان هذا القصر العظيم ، الذى يحده الأزهر ودار الوزارة ، يحتل المكان ما بين خان الخليلى وحي الحسين فى الوقت الحاضر حتى شارع الجمالية . وكانت الأبهاء والقاعات والمكاتب المختلفة موزعة فى تلك المباني أما المراتب والمخازن فكانت لها أبنية أخرى بعيدة منزلة (٣) .

(١) انماط الحفا ص ٩٠ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٧٦ .

وتتميز القصر الشرقى الكبير بكثرة أبوابه ، فمنها الذهب ، وكانت تعلوه منظره يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود فى يومى العيدين ، وتعرف برحبة العيد . وباب الديلم وموقعه الآن مسجد الحسين ، ويصل الى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة وجثث المهدي والقائم والمنصور ، وكان قد أحضرها معه من بلاد المغرب فى توابيت . وظلت هذه المقبرة مدفنا للخلفاء الفاطميين وأولادهم ونسائهم .

ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر ، وكان الخليفة يصلى فيه صلاة الجمعة . وبجوار رحبة باب العيد ، دار الضيافة ، وكانت تسمى دار سعيد السعداء ، وفى مقابلتها دار الوزارة ، وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة الذى يؤدى الى مطابخ القصر ومكانه الآن شارع الصاغة . وتقع خزائن القصر بين هذا الباب والجامع الأزهر .

ومن هذه الخزائن خزائن الكتب والشراب والأسلحة والكسى والفرش ، وكانت فى الجهة الشرقية من القاهرة المعزية . وحرص المعز والعزير على تأثيث هذا القصر بأفخر الأثاث والرياض ، فقد كان الخليفان يميلان الى الترف ومظاهر العظمة .

القصر الغربى الصغير وقصر البحر :

أقام الخليفة العزيز بالله فى القصر الشرقى الكبير طوال حياة أبيه المعز فى مصر ، اذ لم تطل حياة المعز أكثر من عامين ، ثم أقام العزيز فى القصر بعد توليه الخلافة ، حتى شيد قصرا آخر ، أصغر من قصر أبيه ، وسماه القصر الغربى الصغير . وأصبح يطلق على القصرين (القصور الزاهرة) (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ٢١٢ .

أصبح هذا القصر الغربى الصغير مقرا لسكن الخليفة العزيز ، ومركزا للحكومة الفاطمية . وظل القصر قائما حتى بنى فى موضعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى ، ولا يزال بعضه الى اليوم يعرف بسوق النحاسين وبجواره الى الشمال الميدان والبستان الكافورى ، ودار الضيافة القديمة ، ورحبة الاقبال ، وكان بين هذين القصرين فضاء يسع عشرة آلاف جندى أطلق عليه فيما بعد (بين القصرين) .

وكان للقصر الغربى الصغير جناحان بارزان فى كلا الطرفين لكى يمتد بين القصرين أما المسافة بين القصر الغربى والحائط الغربى فكانت تحتلها حديقة كافور بما فيها من أكشاك مختلفة تطل على الخليج (١) . وكانت أرضية القصر مرصوفة بأنواع من الرخام المتعددة الألوان ، وبالسقوف الواح ترينها الزخارف الذهبية الجميلة ، وبه نافورة يجرى الماء فى أنابيب من الذهب والفضة . وبالقصر دور فسيحة وقباب وأروقة ، زينت جدرانها وسقوفها بالرسوم الملونة والفسيفساء الذهبية ، وفرشت بالديباج والوشى ، الى جانب البساتين والحدائق الغناء ، ومقاصير الحريم والخدم والحاشية . وأصبحت القصور الزاهرة مضرب المثل فى بهائها ورونقها ، وما حوته من تحف نادرة وأثاث ثمين (٢) .

وبنى العزيز بالله كثيرا من القصور ، بعضها فى عين شمس ، كما بنى قصر البحر الذى وصفه ابن خلكان (٣) ، كما ذكرنا ، بأنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب . وكان هذا القصر مثلاً أعلى للقصور فى العصور الوسطى ، فكان جزؤه الخارجى الذى يحيط بالبركة من الاتساع ، بحيث يخل الى الناظر انه مدينة من المدن .

(١) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢٦ .

(٢) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٨٠ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

وساعد الخليفة العزيز على اصفاء العظمة والأبهة على قصوره ،
ما خلفه له أبوه المعز لدين الله من أموال طائلة ، فيذكر المؤرخ
المقريزى (١) ان المعز حمل أمواله من المغرب الى مصر على ألف
بعر ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين ، وجعل على كل جمل
قطعتين ، واحتشد الجند والناس يرون هذه الأموال الفخمة
ويتعجبون من أمرها .

جولة في قصر العزيز بالله :

أصبحت الدولة الفاطمية من أعظم الدول الإسلامية حضارة
وثراء ورخاء وتقديما ، في ميادين العلم والفنون ، وأصبحت
قصورهم صورا فنية رائعة ، حفلت بالتحف والذخائر والمجوهرات
الثمينة ، تثبت ثراء الدولة ، وتقدم فنونها وصناعاتها ، ورقى
حضارتها .

ولتسمح لنا أيها القارئ الكريم أن نصحبك في جولة بقصور
العزيز بالله . ولنتوقف قليلا عند دار الكسوة ، التى تقوم بتفصيل
جميع أنواع الثياب ، التى يهبها الخليفة العزيز لموظفيه ورعاياه ،
صيفا وشتاء . وتحدث المؤرخ المقريزى (٢) عن هذه الدار فقال :
« كانوا يخرجون من خزائن الكسوة الى جميع خدمهم وحواشيهم ،
ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير ، كسوات الصيف
والشتاء ، من العمامة الى السراويل وما دونه من الملابس والمناديل ،
من فاخر الثياب ، ونفيس الملبوس ، ويقدمون لهم جميع ما يحتاجون
اليه من نفيس المطعومات والمشروبات » .

وكان القماش يحمل الى دار الكسوة من تنيس ودمياط
والاسكندرية ، ويقوم بتفصيله « صاحب المقص » وهو رئيس
الخياطين ، يساعده عدد كبير من العمال . فيعدون ملابس الخليفة

(١) انماظ الحنفأ ص ٦٥ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .

وما يحتاجه من خلع ، ثم ينقل ما يتم اعداده الى (خزانة الكسوة الباطنة) تتولاها امرأة تسمى « زين الخزان » وتساعدتها ثلاثون جارية ، ويغير الخليفة ثيابه في هذه الخزانة ، وتقوم هذه المرأة بتعطير ثياب الخليفة ، ويحمل اليها في كل يوم كثير من الأزهار لتقوم بهذه المهمة .

وحوت خزانة الكسوات على جميع انواع الثياب المصنوعة في دار الطراز ، أو المجلوبة من البلاد الاسلامية ، فتفصل فيها كسوة الشتاء والصيف لرجال القصر ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، كما تصنع فيها خلع الأمراء والوزراء وكبار الموظفين ، من الثياب والعمائم المذهبة ، وبلغ ثمن العمامة خمسمائة دينار . كما تصنع بها الأطواق والسيوف المخلاة للخلع على الأمراء ، وعقود الجواهر للخلع على الوزراء . وتصنع بها الثياب الحريرية المطرزة بالذهب التي يخلعها الخليفة على كبار رجال الدولة في الأعياد والمواسم . وأمدنا المقرري بتفصيلات كثيرة ، وتحدث عن مخصصات الخليفة والأمراء وموظفي الدولة ونسائهم وأولادهم ، في الشتاء والصيف ، من الملابس التي كانت تصنع بدار الكسوة ، ومقدار قيمة كل كسوة .

وكان يصنع للخليفة كسئ مختلفة ، يصلح كل منها لاحتفال خاص ، وكانت موشاة بخيوط الذهب والفضة ، وبلغ ثمن بعضها خمسمائة دينار ، وأنفق على المنديل الواحد خمسة دنانير . وفي عيد أول رمضان ، وفي الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، وفي جبر الخليج ، كان الخليفة يمنح وزراءه وأسرة الخليفة الحلل المزركشة بالذهب ، كما كان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان حللا من الحرير ، بعضها مزركش بالذهب . ويمنح الخليفة كثيرا من الملابس في عيد الفطر حتى أنهم سموه عيد الحلل (١) .

(١) المقرري الخطط ج ١ ص ٤١٠ .

ولنترك دار الكسوة ، فنجد خزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وقد اشتهر العزيز بالله بأنه خير بالجواهر الثمينة ، وقد ابتكر انواعا جديدة من العمامات والأحزمة المرصعة بالمجوهرات ، والسروج الموشاة بالذهب . وكان يحتفظ في هذه الخزائن بسيوف الخليفة ورماحه وغيرها من الأسلحة التى يحتاجها موكب الخليفة ، الى جانب الطيب والصندل والابنوس والعود والعاج ، وكان العزيز يحرض دائما على تعطير ملابسه بالعنبر .

ثم نصل الى خزائن السلاح ، وتحتوى انواعا مختلفة من الأسلحة ، فهناك الخوذ المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف العربية والرماح والأسنة والقسي والنبل والدروع ، وغير ذلك من الأسلحة ، ويتولى أمرها عبيد كبير من العمال ، تمدهم الدولة بحاجتهم من الحديد والخشب والأصباغ .

وإذا انتقلنا الى احدى قاعات القصر الكبيرة ، نجد خزانة السروج ، فتحوى السروج واللجم من الذهب والفضة ، التى يحتاجها الخليفة ورجاله . وقد ابتكر العزيز نوعا من السروج الموشاة بالذهب كما رأينا . وهذه هى خزائن الفرش والامتعة ، وكثيرا ما تردد الخليفة العزيز عليها ليتفقددها ، وكانت تحوى اثمن الفرش والستور والامتعة . وهذه هى خزانة الشراب تحوى انواعا عديدة من الأشربة والأدوية والعطور الفاخرة ، الى جانب الاوانى والصحون المختلفة . وهذه هى خزائن الطعام التى تعد الأسمطة والولائم الكثيرة التى أقامها الخليفة العزيز بالله . وهناك أيضا خزائن الخيم ، وخزائن البنود أى الأعلام والرايات ، وغيرها من الخزائن . والحق بالقصر حاصلان للمواشى أحدهما للخيول والبغال ، والآخر للابل .

ويلحق بالقصر دار للضيافة ، فقد اتسعت الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العزيز بالله ، وشملت كثيرا من الأقطار ، كما كان لها علاقاتها الدولية ، وأصبحت القاهرة مقصد كثير من السفراء وكبار

الضيوف . ويتولى هذه الدار موظف كبير يسمى (متولى دار الضيافة) أو (النائب) يختار من كبار الشخصيات وأرباب الأقالام ، فيقوم باستقبال كبار الضيوف ، وينزلهم فى الأماكن المناسبة حسب مراتبهم ، ويعمل على توفير وسائل راحتهم ، ويصحبهم لمقابلة الخليفة فى الموعد الذى يحدده لهم ، وكان محرما على النائب أن يتلقى هدية من الضيف الا باذن الخليفة ، وكان له نصف قنطار من الخبز كل يوم (١) .

مع العزيز بالله فى مجلس الملك :

أنشأ الخليفة العزيز بالله قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك ، وكانت مؤثثة بأثاث فخم ، ومزينة بالسطور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم ولون واحد . وفى صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة ، المحجوب بستور ، حتى اذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

وينعقد مجلس الملك بأمر من الخليفة ، فكان الخليفة يبعث صاحب الرسالة الى الوزير يأمره بانعقاد المجلس . وكان صاحب الرسالة من الأساتذة ، وعمله هو حمل أوامر الخليفة الى الوزير حين يحين موعد انعقاد المجلس . واذا صدرت الأوامر للوزير ، ركب فى صحبة الأمراء الى مكان الوزير من القصر ، حيث يترجل ويمشى الى قاعة الذهب .

ويبدأ مجلس الملك برفع السترين الحريري ، ويقوم برفعهما اثنان من الأساتذة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم (زمام القصر) ، فيظهر شخص الخليفة العزيز بالله وحوله جماعة من القراء يأخذون فى ترتيل آيات القرآن الكريم . ثم يأتى حامل الدواة فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر ،

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٨ .

وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم لل خليفة .

وكان الوزير أول من يقدم الى الخليفة ، فيخطو الى الأمام ، ثم يحيى الخليفة بلثم يديه ورجليه ، ثم يتراجع الى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ، فيؤذن له بوسادة يجلس عليها في جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ، ويشير بمسبحته قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان يسمح أيضا لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم . وكان الأمير يزودهم قبل أن يتقدموا الى الخليفة بتعليمات توضح لهم ما يجب عليهم من اتباعه .

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور ، وجب عليه أن يقترب منه ، ويعتمد على سيفه ، ثم يبدأ فى الحديث اليه وكان اجتماع مجلس الملك يستغرق عادة ثلاث ساعات ، تبحث فيها شئون الدولة الهامة ، فيصدر الخليفة أوامره فيها ، وكان الوزير يقترح على الخليفة تعيين كبار الموظفين أو الأشخاص الذين يخلع عليهم .

حتى اذا انتهى عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير فى آخرهم بعد أن يلثم يدى الخليفة ورجليه مرة أخرى ، ثم يركب الوزير الى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ، ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويفادر الايوان ، فتسدل الستور وتغلق الأبواب (١) .

(١) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٣١ .

حاشية الخليفة العزيز بالله :

كان الخليفة العزيز بالله مثله مثل سائر الخلفاء الفاطميين يميل الى مظاهر العظمة والابهة ، وانعكست هذه الميول على بلاطه وحاشيته . وتألفت حاشية العزيز من عدد كبير من الموظفين ، فكان هناك حامل المظلة ، وهو الذى يحمل المظلة فوق رأس الخليفة فى المجالس والموكب ، ويتولى هذا المنصب أمير جليل . وهناك حامل سيف الخليفة ، وهى وظيفة كبيرة أيضا ، وصاحبها يحمل سيف الخليفة فى الموكب ومرتبته سبعون ديناراً شهرياً . وهناك حامل رمح الخليفة ، وهو رمح صغير يحمله هذا الموظف فى الموكب ، ومرتبته أيضاً سبعون ديناراً فى كل شهر . وهناك أيضاً حملة السلاح أو الركابية وصبيانهم ، وكان عددهم يزيد على ألف رجل ، متقلدين السيوف ، يسيرون على يمين ويسار الخليفة ، تحت رياسة اثنى عشر مقدماً ، وكان مرتب كل من مقدمى الركابية خمسين ديناراً شهرياً ، ومرتب كل نفر من الركابية من خمسة الى خمسة عشر ديناراً شهرياً .

ومن أبرز رجال حاشية الخليفة العزيز بالله ، الأساتذة المحنكون ، وقد سموا بالمحنكين لأنهم كانوا يدورون العمامة على أحنأكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن . وكان مرتب كل منهم مائة دينار شهرياً ، وهم الخدام الخصيان المسمون (الطواشية) ، وكانوا أقرب رجال الحاشية الى الخليفة ، وكان اذا تولى أحدهم منصبه بعث الخليفة اليه بدلة كاملة من ثيابه ومندبلاً وفرساً وسيفاً ، وزاد عدد هؤلاء الأساتذة المحنكين على الألف .

وتولى كل استاذ منهم مهمة خاصة ، فمنهم (متولى شد التاج) ويقوم بشد تاج الخليفة الذى يضعه فى الموكب الرسمية ، فيشده بمندبيل من لون ملابس الخليفة فى ذلك اليوم . ومنهم (صاحب المجلس) وهو الذى يشرف على مجلس الخليفة ، وينبئ الوزير

وكبار رجال الدولة بموعد الاجتماع . ومنهم أيضا (صاحب الرسالة) وهو الذى يوصل رسائل الخليفة الى كبار رجال الدولة . ومنهم أيضا (متولى زمام القصر) فيشرف على شئون القصر المختلفة . ومنهم (صاحب الدفتر) أى دفتري المجلس ، ويشرف على دواوين قصر الخليفة . ومنهم (حامل الدواة) وهى دواة الخليفة التى يسير بها فى الموكب ومنهم (متولى زمام الأقارب) ويشرف على شئون أقارب الخليفة ، ومنهم (متولى زمام الرجال) ويشرف على اعداد طعام الخليفة .

وينضم الى حاشية الخليفة (صبيان الخاصة) وهم اولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتولون خدمة الخليفة فى حياته الخاصة ، وكان عددهم نحو الخمسمائة . وهناك أيضا (صبيان الحجر) وكانوا شبانا يزيد عددهم على خمسة آلاف ، يتميزون بالشهامة وكرم الأخلاق ، ويعهد الخليفة اليهم ببعض المهام .

ومن رجال الخليفة ، طبيبه الخاص ، وكان أبو الفتح سهل ابن معشر ، وهو مسيحي ، طبيب الخليفة العزيز بالله . وكان يجلس على باب الخليفة كل يوم مستعدا لمعالجته هو وأسرته ، ومرتبته خمسون دينارا شهريا ، ويعاونه ثلاثة أو أربعة أطباء لمعالجة مرضى القصر من الأقارب والحاشية ، ومرتب كل منهم عشرة دنائير شهريا ، ويكتبون رقاعهم على (خزانة الشراب) وهى صيدلية القصر .

ومن رجال قصر الخليفة (قراء الحضرة) وكانوا يزيدون على العشرة ، يقرأون القرآن الكريم بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه فى المراكب وفى مختلف المناسبات وكانوا يأتون فى قراءاتهم بآيات مناسبة للحال ، فتقع موقع الاستحسان عند الخليفة ، والحاضرين ولكل من قراء الحضرة من عشرة دنائير الى عشرين دينارا فى كل شهر (١) .

(١) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٩٢ .

الدعوة الفاطمية في قصر العزيز بالله :

أصبح القصر في عصر العزيز بالله ، كما كان في عصر أبيه المعز لدين الله ، مركزاً من مراكز الدعوة الفاطمية . وكان يتولى أمر الدعوة الإسماعيلية موظف كبير يسمى (داعي الدعاة) يلي قاضي القضاة في الرتبة . وخصص لداعي الدعاة مكان خاص في قصر الخليفة ، هو دار العلم ، وكان دعاة الإسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون له في يومى الاثنين والخميس ما أعده للمحاضرة في أصول المذهب الإسماعيلي . وكان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقرا على الناس مصنفاته ، ويجلس على كرسي الدعوة في الأيوان الكبير ، فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلساً خاصاً يسمى (مجلس الدعوة) حيث يلقنهن أصول المذهب .

وصف المقرئى هذه المجالس ، فذكر أنه كانت تختلف تبعاً لاختلاف طبقات الناس فكان لآل على بن أبى طالب مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعمامة والقادمين من البلاد الأجنبية مجلس ، وللحرم وخوادم نساء القصور مجلس خاص بهن . وإذا فرغ داعي الدعاة من القاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذى عليه توقيع الخليفة . وكان داعي الدعاة يتسلم كتب الدعوة التى تقرأ على الناس في القصر من سلفه المباشر . أما هذه الكتب فقد ألفها علماء مشهورون من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله .

قلد الخليفة العزيز بالله قاضي القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة الى المذهب الفاطمى في القصر ، كما كان أخوه الحسين يتولى الدعوة في القاهرة . ووصف المقرئى (١) مجلس محمد بن النعمان

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٩١ .

في قصر الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨٥ هـ فقال : « جلس على كرسي بالقصر لقراءة علوم آل البيت ، على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه - أي على بن النعمان - بمصر ، ولأبيه - أي أبو حنيفة النعمان - بالمغرب » . وكان قصر العزيز بالله مزودا بمكتبة كبيرة تحوى كثيرا من كتب الدعوة الفاطمية ، وسمح لعامة الناس بالاطلاع على كتبها .

اعتمد الخليفة العزيز بالله على بيت النعمان في نشر الدعوة الفاطمية . وكان أبو حنيفة النعمان أول من أسس الدعوة الاسماعيلية في عهد الخليفة المعز ، ولكنه مات بعد أن وصل في صحبة المعز بسنة واحدة (٣٦٣ هـ) . وكان على بن النعمان يجلس في سنة ٣٦٥ هـ لشرح كتاب (الاقتصار) الذي وضعه أبوه ، ويمليه على الناس . ويحوى الكتاب مسائل فقهية مستمدة من الأئمة العلويين ، واهتمت الحكومة الفاطمية بتنظيم هذه المحاضرات وتسجيل أسماء من يحضرونها في سجلات خاصة (١) .

اعتمد الخليفة العزيز بالله على كتب أبي حنيفة النعمان في نشر الدعوة الفاطمية . ومن أشهر كتبه (دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام) وقد ألفه بتكليف من الخليفة المعز ، ويتحدث عن الفقه الاسماعيلي ، واعتمد الخليفة العزيز بالله عليه في نشر الدعوة الاسماعيلية واصدار الأحكام في الفتاوى . وقد نهج يعقوب بن كلس وزير العزيز نهج النعمان حينما وضع كتابه (مصنف الوزير) . ومن أشهر كتب النعمان (كتاب المجالس والمسائرات) وهو من أهم المصادر التاريخية المعاصرة للمعز لدين الله ، وتحدث عن علاقاته بالدولة الأموية بالأندلس . وبالدولة البيزنطية ، وبجزيرة كريت . كما يعتبر الكتاب أيضا من أهم كتب الدعوة الاسماعيلية لأن النعمان استمد مادته من الخليفة المعز

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٤١ .

باعتباره الامام الفاطمي ، وأصبح هذا الكتاب في عهد الخليفة العزيز بالله من أهم مصادر الدعوة الفاطمية في قصر الخليفة وفي المساجد .

ومن المؤلفات التي اعتمد عليها الخليفة العزيز بالله في الدعوة الفاطمية ، كتب جعفر بن منصور اليمنى ، الذي نال تقدير الخليفة المعز لدين الله وتقديره ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (تأويل الزكاة) الذي ألفه سنة ٣٦٠ هـ ، ومن كتبه أيضا (سرائد النطقاء) و (الشواهد والبيان) .

وكان العزيز بالله متفهما في الدعوة الاسماعيلية ، وقد اعتمد وزيره يعقوب بن كلس على كثير من آرائه في رسالته التي وضعها باسم (الرسالة الوزيرية) والتي تبحث العقائد الفاطمية . وكان يقرأها على الناس في جامع عمرو بن العاص .

رقيق وجواري القصر :

حفل قصر الخليفة العزيز بالله بكثير من الرقيق والجواري ، مثلما كان متبعاً في قصور الأخشيديين والفاطميين . وجلب النحاسون الى مصر كثيراً من الفلماني والجواري ، من النوبة والحبيشة والسودان والتركستان وغيرها ، ممن حسن منظرهم وكثرت شجاعتهم ، وساعدتهم على ذلك ما كان فيه الخلفاء من البذخ والثروة ، فعهد اليهم الخليفة بخدمة قصره وحراسته وأسند اليهم أعلى المناصب وجعلهم من خاصته وحاشيته .

وخصص الخليفة عدداً من الخصيان من الرقيق لخدمة جريم القصر أو الخليفة نفسه ، فكانوا أحياناً يحفون بالخليفة مطلقين البخور على جانبي طريقه اذا خرج مثلاً لجبر الخليج . ولقد بلغ عدد الرقيق في قصر الخليفة عدة آلاف ما بين أشرف وخدم .

وكان لست الملك ابنة الخليفة العزيز أربعة آلاف جارية منهن
١٥٠٠ جارية من الأبنكار والبقاى من الثيبات (١) . والى جانب
المحظيات من الجوارى ، كانت هناك الراقصات والمغنيات . وكلما زاد
الخليفة المعز لدين الله من جوارى المغاربة فى القصر ، زاد ابنه
الخليفة العزيز بالله من جوارى الأتراك (٢) .

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٥١ .

(٢) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٨٠ .

العزير باسد صفاته . أسرته . وفاته

اخلاق العزير بالله وصفاته :

وصف المؤرخ ابن الأثير الخليفة العزير بالله فقال أنه كان أسمر اللون طويلا ، أصهب الشعر ، أزرق العينين كبيرهما ، عريض المنكبين ، عارفا بالخيل والجواهر (١) .

وأجمع المؤرخون الأقدمون والمحدثون على امتداح الخليفة العزير بالله ، فلم يعرف عنه أنه شرب الخمر ، أو مارس ما كان يمارسه بعض الخلفاء من عبث أو مجون ، بل انصرف الى شئون دولته والاهتمام برعاياه وجمع حوله طائفة من العلماء والفقهاء والشعراء ، فكان العزير يهتم بالعلم والثقافة ويحيد عدة لغات ، وقام بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية كبرى بعد أن كان معهدا خاصا بدراسة الفقه الشيعي واقامة الصلاة . وقام بتنمية مكتبة القصر وتزويدها بألاف من الكتب ، على النحو الذي ذكرناه آنفا . كما كان العزير جادا في بلاطه رغم أنه تولى الخلافة وهو في الثانية والعشرين من عمره أى سن الشباب المبكر .

وكان العزير بالله شاعرا مجيدا ينظم كثيرا من القصائد في المناسبات المختلفة فروى الثعالبي (٢) أنه قال في يوم عيد ، وقد مات ابنه وجلس للعزاء :

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٨١ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤ .

نحن بنو المصطفى ذوو أحن جزعها في الحياة كاظمنا
عجيبة في الأنام محنتنا وأولنا مبتلى وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم طرا وأفراحنا مآتمنا

واشتهر الخليفة العزيز بالله مثله مثل سائر الخلفاء الفاطميين بحب الأبهة حتى قيل « أن خيوله كانت تكسى الزرد المطعم بالذهب وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر ومعطرة بالعنبر » . وهو أول من سار في موكب حافل الى الجامع في كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، واهتم بإنشاء المباني الفخمة وابتكر العزيز بالله لبس العمامة الموشاة بالذهب والأحزمة المرصعة بالمجوهرات والمعطرة بالعنبر الأسود والسرج الموشى بالذهب ، فقد مال الى الترف والرفاهية (١) .

وكان العزيز بالله خبيرا بالجواهر الثمينة يميز بينها ويقدر أثمانها وقيمتها الفنية . وكان له هواياته فقد شغف بجوارح الطير الغريبة وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما بالصيد ، وخاصة صيد السباع (٢) وقد وصف المؤرخ ابن الأثير العزيز بالله فقال عنه انه كان صيادا جريئا ماهرا . كما كان شغوفا بجلب الأسماك الجميلة من البحر . ويشبهه المؤرخون في هذه الهوايات بخمارويه بن أحمد بن طولون . كما اهتم العزيز بالله بالخيول فاقتنى عددا كبيرا منها واهتم بتفقيدها واستعراضها .

(١) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

ويعلق المؤرخ (لينبول) (١) على هوايات الخليفة العزيز بالله فيقول : غير أن العزيز في الوقت نفسه كان يشبه أباه في حبه للسياسة وإدارة شؤون البلاد ، ولم يكن لما عرف عنه من حب الترف أو البذخ أثر في الحد من مقدراته السياسية أو الإدارية . فقد بنى أسطولاً ليحارب الإمبراطور باسيل كما أنه شهد بنفسه حملة موفقة على سوريا التي لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين وكان عهده عهد سلام دائم في مصر وكان اسمه يذكر في صلاة الجمعة في المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلسي .

واشتهر الخليفة العزيز بالله بالكرم والعفو وسماحة الأخلاق ويدلل المؤرخون على هذه الصفات بموقف العزيز بالله من أفتكين التركي بعد أن نجح في أسره . فقد عفا عنه وأغدق عليه الصلوات وخصص له داراً ليقم فيها وسمح له بالتردد على بلاط الخليفة واعترف أفتكين بكرم الخليفة وسماحته فقال : « لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى إليه مما غمرنى من فضله وإحسانه » . ونقل حيدرة عم العزيز بالله إلى الخليفة « مقالة أفتكين » فقال العزيز : « يا عم . أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » (٢) .

وعلق (آدم متر) على موقف العزيز بالله من أفتكين التركي فقال : وقد ضرب العزيز أول مثل للفروسية بما تنطوى عليه من العفو وكبر القلب وهى التى أثرت فيما بعد تأثيراً فى الغرب .

واشتهر العزيز بالله بالشجاعة والجرأة وبدأت هذه الصفات واضحة وقت السلم فى شغفه بالصيد وخاصة صيد السباع . وفى وقت الحرب ، اذ قاد بنفسه الجيش الفاطمى فى قتال أفتكين

(١) سيرة القاهرة ص ١٣٢ .

(٢) ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ - ٢١ .

التركي والقرامطة في الشام ونجح فيما أخفق فيه القائد المشهور جوهر الصقلی فقد اضطر جوهر الى الانسحاب من بلاد الشام وعاد الى الخليفة العزيز بالله فقال له : « ان كنت تريدكم فاخرج بنفسك اليهم والا فانهم وارءون على أثرى » .

ويعتبر عصر العزيز بالله عصر تسامح ديني فقد نعم أهل الذمة في مصر بفترة هدوء وسلام واطمئنان . وفي رأينا أن هذا التسامح لا يرجع الى زواج العزيز بالله من مسيحية كما يذكر المؤرخون ولكن هذا التسامح كان جزءا من أخلاق العزيز بالله وصفة من صفاته وقد شهدنا هذا التسامح على صور كثيرة فكان متسامحا مع أعدائه وخصومه وكان حريصا على اكتساب محبة رعاياه من غير المسلمين . وهي السياسة التي وضع بذورها أبوه المعز لدين الله حين احتفل بالأعياد غير الاسلامية مثل عيد الميلاد وعيد القطاس كما احتفل بالأعياد المصرية القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل كما اتسع تسامح العزيز بالله فشمل اليهود في مصر أيضا .

كما كان العزيز بالله يمثل الخليفة العالم المثقف تمثيلا صادقا وقد تحدثنا عن النهضة العلمية والثقافية في عهده وشهدنا تشجيعه للعلماء والفقهاء والشعراء ، والاهتمام بالمكتبات ودور العلم .

كان العزيز بالله يرتدى في قصره ثيابا خاصة تتميز بأن أكمامها قصيرة وكان يلبس من الكساء قفطانا وجبة وقباء ويتشع بالعباءة ويلبس قلنسوة مزينة بجوهر غالية . فاذا ركب العزيز في أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان يلبس توقيرا للصلاة الثياب البيضاء والمنديل والطيلسان . وفي صلاة عيد الفطر يلبس الثياب البيضاء الموشحة ويلبس في يوم الاحتفال بوفاء النيل ثوبا يسمى (البدنة) من حرير مرقوم بالذهب . وفي الاحتفال بصلاة عيد الأضحى كان العزيز بالله يرتدى ثيابا من الحرير الأحمر الموشح لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يلبس برده الأحمر في العيدين

والجمعة . وكان العزيز يخلع على وزيره ثيابه الحمر التى كانت عليه (١) .

وإذا خرج العزيز بالله فى الموكب تقلد السيف العربى المطعم بالجواهر وكانت له حمائل يعلق بها على الكتف الأيمن وهو مدلى على الجنب الأيسر . وكان يضع على رأسه تاجا عظيما يسمى التاج الشريف وهو تاج الخلافة ومحلى بالجواهر الثمينة التى كان العزيز بالله خبيرا بها . فكان يعلو التاج درة يتيمة زنتها سبعة دراهم . وكان العزيز يمسك بيده قضيب الملك وهو عود طوله شبر ونصف وهو مذهب محلى بالجواهر .

أسرة العزيز بالله :

العزيز بالله ، هو سليل الأسرة الفاطمية المجيدة التى ينتهى نسبها الى الرسول صلى الله عليه وسلم ويعتز الفاطميون بأنهم اكتسبوا اسمهم من السيدة فاطمة رضى الله عنها ابنة الرسول وزوجة على بن أبى طالب رضى الله عنه . والعزيز بالله هو خامس الخلفاء الفاطميين وثانى الخلفاء الفاطميين بمصر . وأبوه هو الخليفة المعز لدين الله (معد أبو تميم) الذى نجح فى تحقيق الحلم الكبير الذى كان يراود الخلفاء الفاطميين الثلاثة الأوائل وهو نقل الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر حتى ترث الدولة الفاطمية ممتلكات الدولة العباسية فى المشرق . وقد أطنبنا الحديث عن المعز وامتداحه وشهدنا الكثير من معالم سياسته وأصلاحاته مما لا يدع مجالا لتكرارها .

وصف صاحب كتاب (المعز لدين الله) هذا الخليفة فقلا : يعتبر المعز لدين الله مثلاً أعلى للخلفاء الفاطميين فقد كان يتصف بصفات رفعتة الى مصاف كبار الملوك والسلاطين فكان قوى العزيمة يواجه

(١) الخطط ج ١ ص ٢٨٧ .

الصعاب دون خوف أو وجل ، يقف في عزم ثابت في وجه الثورات التي يزكى نيرانها الخارجون على الدولة ويتصدى لناواة الأمراء الذين يعملون على الاستقلال عن الفاطميين . كما كان المعز رحب الصدر كثير الحلم وخصوصا نحو الرعية حتى كانوا يهرعون اليه اذا رأوه ، ويرفعون اليه ظلاماتهم فيسمع لكل واحد منهم على حدة وينهر من يقف في وجههم ، وكان المعز يضرب به المثل في حلمه مع خدمه وعبيده . اما تقوى المعز وورعه فحدث عنهما ولا حرج . كما اشتهر المعز بالجلود ، كما كان عالما ، متوفرا على البحث والإطلاع .

وكان للعزیز اخوة كثيرون نذكر منهم عبد الله وعقيل وقد احتفل أبوهم الخليفة المعز - كما ذكرنا - باختنائهم احتفالا شائقا بهيجا . ومن اخوة العزیز البارزين تميم بن المعز ، الذي توفي سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) وقد تبوأ عرش الأدب تاركا عرش الخلافة لأخيه نزار أى العزیز . وكان شعره يتدفق رقة وسلاسة مع الميل الى الحزن والجنوح الى الغزل والاشادة بمآثر الفاطميين وهجاء خصومهم السنيين .

افتخر تميم بانتسابه الى السيدة فاطمة بنت الرسول وهجا العباسيين - فأنشد يرد على ابن المعتز العباسى الذى كان يشهد بالعباسيين :

يا بنى هاشم ولسنا سواء	في صفار من العلاء وكبار
أن نكن ننتمى لجد فانا	قد سبقناكم لكل فخار
ليس عباسكم كمثلى على	هل تقاس النجوم بالاقمار ؟

وكان تميم بن المعتز يرد بهذه الأبيات على أبيات ابن المعتز الذى أنشد :

هاشمى اذا نسبت ومخصو

ص بيت من هاشم ، غير عيار

أخزن الفيظ في قلوب الأعداء

وأجل الجبار دار الصغار

واشتهرت في عهد الخليفة العزيز بالله السيدة تغريد زوجة المعز وقامت سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ببناء مسجدتها بالقرافة وقد تولى زخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة . كما بنت هذه السيدة قصر القرافة وقد تحدثنا عن المسجد والقصر عند حديثنا عن القاهرة في عهد العزيز بالله .

ومن أخوات العزيز بالله رشيدة وعبد . وقد حازتا ثروات كبيرة مثلها في ذلك مثل سائر أفراد الأسرة الفاطمية . فقد تركت السيدة رشيدة ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية وتركزت الأخرى وهي السيدة عبدة كثيرا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى وغير ذلك من الدخائر .

وصف المقرئ تركة السيدتين فقال : « ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ما قيمته ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار من جملته ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا . . ووجد لعبدة بنت المعز أيضا وماتت في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ما لا يحصى . . إن خزائن السيدة عبدة ومتاجرها وصناديقها ما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع في خواتيمه على الصحة والملاحظة أربعون رطلا بالمصري . وإن بطائق المتاع كتبت في ثلاثين رزمة ورق . ومما وجد لها أيضا أربعمائة قمطرة وألف وثلاثمائة مينا فضة مخرقة زنة كل مينا عشرة آلاف درهم وأربعمائة سيف محلى بالذهب وثلاثون ألف شقة صقلية . ومن الجواهر ما لا يحصى كثرة وزمرد كيلة أردب واحد » (١) .

(١) القرئى : الخطط ج ١ ص ٤١٥ .

تزوج الخليفة العزيز بالله بسيدة رومية مسيحية على المذهب
الملكاني وهو مذهب كنيسة القسطنطينية فولدت له ابنه الحاكم
بأمر الله وابنته ست الملك . وكان لزوجته العزيز منزلة كبيرة لديه
حتى ان الخليفة عين أخويها بطريركين ، أحدهما في الاسكندرية
والآخر في بيت المقدس .

ويبدو أن العزيز بالله أقدم سار على سنة أبيه الخليفة المعز
لدين الله في الاكتفاء بزوجة واحدة وعدم تعدد الزوجات . فقد كان
المعز — كما ذكرنا — ينصح رجاله ووجوه القوم بذلك فيقول :
« فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون الى نصرتكم
بأبدانكم وعقولكم » (١) .

اشتهرت ست الملك ، ابنة العزيز بالله ، بالحزم ورجاحة العقل ،
وامتازت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الديني وكثيرا ما كانت
تعطف على غير المسلمين . وكانت في السادسة والعشرين من عمرها
حين توفي أبوها وكانت مع أخيها الحاكم بأمر الله مسلوقة السلطة
فأثار ذلك حفيظتها ، ولا سيما عندما انتقد مسلكها فتأمرت
— كما يذكر المؤرخون — على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة
ابن دواس أحد شيوخ كتامة .

يروى أبو المحاسن (٢) قصة تدبير ست الملك مصرع أخيها ويذكر
انها قالت لسيف الدولة : « يا سيف الدولة قد جئت في أمر أخرس
به نفسي ونفسيك والمسلمين ولك فيه الخطر الأوفر وأريد مساعدتك
فيه . . أنت تعلم ما يقصده أخى فيك وأنه متى تمكن منك لم يبق
عليك وكذا أنا ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف الى ذلك تظاهره
بإدعائه الألوهية وهتك ناموس الشريعة وناموس آبائه وقد زاد

(١) المقرئى : انما الحنفا ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٦ .

جنونه وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه ،
وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء » .

وخلفت سبت الملك ثروة ضخمة منها ثمانمائة جارية وثمان
جرات ملأى بالمسك وكثير من الأحجار الكريمة من بينها قطعة من
الياقوت تزن ثمانية مثاقيل . وكانت مخصصات هذه الأميرة
السنية خمسين ألف دينار « (١) » .

وقد برزت المرأة في العصر الفاطمي إذ أن قانون الشيعة يجيز
للبنات أن ترث كل ما يترك أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا
يخالف قانون مذهب السنية الذي يقضى بالألا ترث البنات أكثر من
نصف الثروة وكان قانون الشيعة أيضا يجعل البنات حاجبة
للأعمام .

حقيقة الحاكم بن العزيز :

يعتبر الحاكم من الشخصيات الفريدة التي اختلف المؤرخون في
تقديرها والحكم عليها فقد حاروا في تفسير تصرفاته المتناقضة
وأوامره المتعارضة وتقلبه المستمر وقد اتهمه المؤرخون بالجنون
أو الشذوذ ونفى بعضهم عنه الجنون أو الشذوذ . ويمكننا أن نقف
موقفا وسطا فنقول ان الحاكم كان مصابا بازدياج الشخصية الى
جانب نوع من جنون العظمة - ظهرت الصفة الأعلى واضحة في
ظهوره مرة بمظهر نصير أهل الذمة ثم اضطره لهم بعد فترة وجيزة
وظهرت الصفة الثانية في تأييد من نادوا بالوهيته . وفي رأينا أن
الحاكم لم يكن مؤمنا تماما بفكرة التآليه ولكن اعتبرها وسيلة
لاحترام رعاياه له وحرصهم على تنفيذ أوامره اشباعا لحبه للعظمة
وأن يحيط نفسه بهالة من التقديس والاجلال .

(١) المقرئى : الخط ج ١ ص ٤١٥ .

أما ما تحدث عنه المؤرخون من شذوذ الحاكم فنرى أن الحاكم كان يريد تحقيق غايات طيبة يدفعه الى ذلك نوايا حسنة ولكنه اتبع طرقا شاذة ووسائل معوجة . فقد انتشرت في عهده السرقات لدرجة أقلقَت الناس فبدأ الحاكم يعالج هذه المشكلة فأمر الناس بتعليق المصاييح على أبواب الحوانيت والمنازل ثم أمر أرباب الحوانيت بممارسة أعمالهم التجارية ليلا (١) ثم شعر الحاكم أن انارة الشوارع اعطت فرصة لبعض العابثين للهو والمجون فأمر أن يفرض قوانين صارمة فمنع النساء من الخروج ليلا ومنع الرجال من الجلوس أمام الحوانيت . ولما لم تؤد هذه القوانين الى الأغراض المقصودة منها فرض منع التجول منذ صلاة العشاء الى صلاة الفجر مما ترتب عليه اغلاق الحوانيت ليلا .

تمتعت مصر في عهد الحاكم برخاء اقتصادى أدى الى ترف ورفاهية وبالتالي الى نوع من الفوضى الاجتماعية وراى الحاكم أن يقضى على هذه الفوضى ويقر الآداب الاجتماعية فمنع النساء من السير خلف الجنازات كما منعهن من الخروج من الحمامات والأسواق والتطلع من النوافذ ، وتنفيذا لأوامره نهى صانعى الأحذية عن صنع أحذية للنساء وكان هدف الحاكم من ذلك منع النساء من الاختلاط بالرجال لوضع حد للفوضى الاجتماعية .

أدى الرخاء الى اقبال بعض الناس على شرب الخمر وراى الحاكم أن يضع حدا لذلك فالخمر مرض اجتماعى يجب الوقوف في وجهه فمنع استيراد الزبيب أو بيعه ثم أمر كل فرد بألا يشتري أكثر من أربعة أرطال عنب في كل مرة كما أمر بالتلاف أشجار الكروم .

فسر المؤرخون بعض قوانين الحاكم بأنها قوانين شاذة ولكننا نخالفهم في الراى فقد أمر الحاكم الا يصطاد الصيادون سمكا بغير

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) .

قشر حرصاً على الثروة السمكية في البلاد . كما منع الحاكم ذبح البقر إلا في عيد الأضحى مدفوعاً بتنمية الثروة الحيوانية وقد فعل الحجاج بن يوسف الثقفي مثل هذا في العراق ، كما تلجأ بعض الحكومات الحديثة أحياناً إلى تحديد ذبح الحيوانات أو منع ذبح الإناث . وغير ذلك من القوانين التي تفرضها المصلحة العامة . كما منع الحاكم تخزين ما يفرض عن حاجة كل فرد من المواد التموينية وحدد أسعار المواد الغذائية والاستهلاكية وجعل القتل عقوبة المخالفين كما منع عجن الخبز بالأرجل ، تحقيقاً لنظافة الغذاء الرئيسى للشعب (١) . أما ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن الحاكم قد منع زراعة وبيع بعض أنواع الفاكهة والخضروات فترى أنه كان مدفوعاً إلى ذلك بكراهيته لكبار السنينين باعتباره زعيم الشيعة الأكبر فمنع ما كانوا يحبونه في حياتهم .

أما سياسة الحاكم نحو أهل الذمة فيتضح فيها « ازدواج الشخصية » فقد مر أهل الذمة بفترتين متميزتين تمتعوا في فترة منهما بالتسامح والتساهل بينما نزل بهم في فترة أخرى ألوان من الاضطهاد . ولكن إذا عرفنا أن الحاكم في الفترة الثانية قد لحق اضطهاده بسائر طبقات الشعب على اختلاف أديانهم أدركنا أن الحاكم لم يكن يقصد أهل الذمة بالاضطهاد (٢) .

يدافع ابن خلدون عن الحاكم فينفى عنه اتهام المؤرخين له بالكفر فيقول : « وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بناسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بغض ذلك لقتل لوقته » (٣) .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

(٢) انظر كتابنا (مصر العربية الإسلامية) ص ١٥٤ .

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٦٠ .

لم يكن الحاكم شريفاً على طول الخط فقد مال إلى التقشف والزهد في حياته العامة والخاصة ومنع الناس من ذكر غبارة « سيدنا ومولانا » في المكاتبات الواردة إليه وحتم عليهم أن يلقبونه بأمير المؤمنين ، كما أصدر أوامره ألا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل يده عند السلام عليه في المواقب . كما أمر ألا يصلى عليه أحد في الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية وكان من المعتاد أن يصلى الخطيب على الخليفة كما يصلى على النبي في خطبة الجمعة . ومنع الحاكم ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمي ونهى عن إقامة الزينات في طريقه إلى المصلى الذي أقامه بجبل المقطم وصار يخرج للصلاة في أبسط المظاهر واهتم الحاكم بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة وطارده العابثين بالأمن . وكان الحاكم زاهداً في أموال الدولة برغم ما تكسب لديه من الأموال والتحف . وبلغ من تعففه أنه إذا كثرت أملاك أحد رجاله أضافها إلى خزانة الدولة (١) .

وفاة الخليفة العزيز بالله :

كانت وفاة الخليفة العزيز بالله في مدينة بلبس في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ وكان قد خرج على رأس الجيش الفاطمي لقتال القرامطة وهو في الرابعة بعد الأربعين من عمره . وكان العزيز قد ولد في سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهديّة وقدم إلى القاهرة مع أبيه المعز سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة فخلّعه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو في الثانية والعشرين من عمره .

وروى ابن خلكان (٢) أن سبب وفاة العزيز كان حصاة في المثانة

(١) جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ٦٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

وقولنج وذكر أن طبيبه أخطأ في وصف الدواء الذى شربه وهو في الحمام فمات من ساعته .

وكان العزيز بالله قد خرج على رأس جيشه قاصدا بلاد الشام لرد الهجوم البيزنطى على هذه البلاد حتى وصل الى بلبيس فاشتد عليه المرض فتخلف بها وما لبث أن توفى .

وحينما اشتد المرض على العزيز بالله استدعى اليه القاضى محمد بن النعمان المغربى وأبا محمد الحسن بن عمار زعيم كتامة واستشارهما فى تولية ابنه المنصور أبى على الذى أصبح لقبه بعد توليه الخلافة (الحاكم بأمر الله) .

تحدث الحاكم عن يوم وفاة أبيه فقال : « استدعانى والذى قبل موته وهو عارى الجسد وعليه الخرق والضماد وقبلنى وضمنى اليه وقال : واغمى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه ثم قال : « امض ياسيدى فالعب فانا فى عافية » . ثم قال الحاكم : « فمضيت والتهيت بما يتلهى به الصبيان من اللعب » .

وكان الحاكم بأمر الله قد ولد فى يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ وقد عهد اليه أبوه فى سنة ٣٨٣ هـ بولاية العهد ثم بويع للحاكم فى اليوم الذى توفى فيه أبوه العزيز أى فى شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ وعمره احدى عشرة سنة ونصف سنة وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان .

وكان لنبا وفاة الخليفة العزيز بالله وقع شديد فى القاهرة فقد ودعوه قبيل خروجه على رأس الجيش الفاطمى لقتال البيزنطيين فى احتفال رائع ولكنه كان الوداع الأخير . ولما علم أهل القاهرة بوفاة العزيز وتولية الحاكم بأمر الله الخلافة ، خرجوا لاستقبال الخليفة الجديد ابن خليفته المتوفى المحبوب ، ودخل الحاكم القاهرة وبين يديه البنود والرايات وعلى رأسه المظلة يحملها

ريدان الصقلي ، فدخل القصر عند غروب الشمس وبين يديه
جثة أبيه فتولى غسله القاضي محمد بن النعمان ودفن مع أبيه المعز
في إحدى حجرات القصر الشرقي الكبير (١) .

وبعد وفاة العزيز بالله اضطربت الأحوال السياسية في الدولة
الفاطمية فقد ثار الكتاميون وهم عصب الخلفاء الفاطميين على
الحاكم بأمر الله منتهزين فرصة صغر سنه ، وطلبوا منه عزل عيسى
ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبي محمد الحسن بن عمار وهددوا
ال خليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء وبالقتل اذا
لم يصغ الى شكواهم ويحقق رغباتهم . فلم ير الحاكم بدا من
اجابتهم الى مطالبهم فأسند الوساطة الى ابن عمار . ولم يلبث أن
ظهر سوء ادارته في كثير من الوجوه فقد بالغ في مخاطبة الكتاميين
وأبطل أعطيات الأتراك واعتمد على أحداث المغاربة مما أثار مشاعر
الأتراك . وكان برجوان ينافس ابن عمار وينائوه ويعضده الأتراك
في هذا النزاع . وادى هذا الصراع الى هرب ابن عمار الى الصحراء
وحل محله برجوان (شعبان ٣٨٧ هـ) ولما شعر الحاكم أن سلطته
مسلوبة مع هذا الوزير عمل على التخلص منه فقتل في حديقة
داره (١) .

((تم بحمد الله تعالى))

المصادر

وقد ورد ذكرها كلها في حواشي الكتاب

آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده) .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ .

A Short History of the Fatimid Khalifate : أوليري :

البغدادى : الفرق بين الفرق .

البكرى : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب .

الثعالبي : يتيمة الدهر .

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى .

ابن حجر العسقلانى : رفع الأصر عن قضاة مصر .

حتى (فيليب) : تاريخ العرب (ترجمة مبروك نافع) .

حسن إبراهيم (الدكتور) : تاريخ الدولة الفاطمية .

المعز لدين الله (بالاشتراك مع الدكتور طه شرف) .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر .

ابن خلكان : وفيات الأعيان .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقدة الأمصار .

دوزى : المسلمون في اسبانيا .

زكى محمد حسن (الدكتور) : فنون الإسلام .

ستانلى لينبول : سيرة القاهرة (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم

وآخرين) .

السيوطى : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

الشهرستانى : الملل والنحل .

- عطية مشرفة (الدكتور) : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين .
- على حسنى الخربوطلى (الدكتور) : مصر العربية الاسلامية .
- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة .
- أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر .
- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق .
- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا .
- الكرملى : (انستاس مارى) النقود العربية وعلم النميات .
- الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة .
- ماجد (الدكتور عبد المنعم) : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر .
- الماوردي : الأحكام السلطانية .
- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
- المقريزى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .
- اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا .
- ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين .
- ابن منجب : الاشارة الى من نال الوزارة .
- محمد جمال الدين سرور (الدكتور) : النفوذ الفاطمى في بلاد الشام والعراق .
- النفوذ الفاطمى في الجزيرة العربية .
- مصر في عهد الدولة الفاطمية .
- الدولة الفاطمية في مصر .
- ابن ميسر : تازيخ مصر .
- النعمان : المجالس والمسائرات .
- هايد : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age.
- ياقوت معجم البلدان .

فهرس

صفحة

٣ مقدمة

٧ ١ - فجر حياة العزيز بالله في المغرب

تطور الدعوة الشيعية في بلاد المغرب - قيام الدولة
الفاطمية في المغرب - المهدي الجد الأكبر للعزيز بالله
أجداد العزيز بالله - مولد العزيز بالله في المهديّة
بالمغرب - العزيز بالله في قصر المعز بالمغرب .

١٨ ٢ - قدوم العزيز بالله الى مصر

اسباب الفتح الفاطمي - العزيز بالله يشارك في
الاستعدادات لفتح مصر - المعز والعزيز في وداع جوهر
- الفتح الفاطمي لمصر - رحيل العزيز بالله الى مصر
مع أبيه - العزيز بالله في القاهرة - وفاة المعز وخلافة
العزيز - حفل تنصيب العزيز بالله خليفة .

٣٢ ٣ - عصر تسامح ورخاء وازدهار

مميزات عصر العزيز بالله - عصر تسامح ديني
 واجتماعي - سياسة العزيز بالله نحو اهل السنة في
مصر - عصر رخاء وازدهار .

٤٨ ٤ - القاهرة المعز والعزيز

نشأة القاهرة - تطور القاهرة في عهد العزيز بالله -
تطوير الجامع الأزهر في عهد العزيز بالله - مواكب

- العزیز فی طرقات القاهرة - جولة فی القاهرة العزیز -
العزیز بالله فی الأعیاد والمواسم بالقاهرة .
- ٥ - **حکومة العزیز بالله** ٦٩
- نظام الخلافة فی عهد العزیز - نظام ولاية العهد -
وزراء العزیز بالله - النظم الاداریة والحکومیة فی عصر
العزیز بالله - الكتابة والحجابه والشرطة فی عهد
العزیز - بريد العزیز بالله - جيش العزیز بالله -
أسطول العزیز بالله - القضاء والمظالم فی عهد العزیز .
- ٦ - **حصارة مصر فی عهد العزیز بالله** ١٠٤
- نهضة زراعیة فی مصر - تقدم الصناعة المصریة -
ازدهار التجارة الفاطمیة - اهتمام العزیز بالعلم
والثقافة - شعراء عصر العزیز بالله .
- ٧ - **امبراطوریة العزیز بالله** ١٢٤
- الصراع بین العزیز والقرامطة حول الشام - بین
العزیز وأفتکین الترمکی - نفوذ العزیز بالله فی الجزيرة
العربیة - نفوذ العزیز بالله فی العراق - العلاقات بین
العزیز بالله والدولة البیزنطیة - العلاقات بین
العزیز بالله والدولة الأمویة بالاندلس - نفوذ
العزیز بالله فی المغرب وصقلیة .
- ٨ - **العزیز بالله فی قصره** ١٤٤
- القصر الشرقی الکبیر - القصر الغربی الصغیر وقصر
البحر - جولة فی قصر العزیز بالله - مع العزیز بالله فی
مجلس الملك - حاشیة الخلیفة العزیز - الدعوة
الفاطمیة فی قصر العزیز بالله - رقیق وجوارى القصر .
- ٩ - **العزیز بالله : صفاته - أسرته - وفاته** ١٦٠
- أخلاق العزیز بالله وصفاته - أسرة العزیز بالله -
حقیقة الحاکم بن العزیز - وفاة الخلیفة العزیز بالله .

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ - محمد عبده	عباس المقاد
٢ - المعتمد بن عباد	علي ادهم
٣ - جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ - عبد الرحمن بن خلدون	د . علي عبد الواحد وافي
٥ - ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ - مملوكة	ابراهيم الابيارى
٧ - سيد ديويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ - عبد القاهر الجرجاني	د . أحمد بدوى
٩ - عبد الله النديم	د . علي الحديدى
١٠ - عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الرئيس
١١ - مالك	امين الخولى
١٢ - القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ - الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ - الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ - ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ - المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ - الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ - الأصبمى	د . أحمد كمال زكى
١٩ - زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ - قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ - شكيب اوسلان	احمد الشريامى
٢٢ - ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ - أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

د . جمال الدين الرمادى	٢٤ - عبد العزيز البشرى
محمد جابر الحينى	٢٥ - الخنساء
د . احمد فؤاد الاهوائى	٢٦ - السكندى
د . بدوى طبانه	٢٧ - صاحب بن عباد
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ - الناصر بن قلاوون
انور الجندى	٢٩ - احمد زكى
د . سيد حنفى حسنين	٣٠ - جان بن ثابت
عقيد : محمد فرج	٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى
عبد القادر احمد	٣٢ - مظفر الدين كوكبورى
د . ابراهيم احمد الحدوى	٣٣ - رشيد رضا
د . محمود احمد الحفنى	٣٤ - اسحاق الموصلى
د . زكريا ابراهيم	٣٥ - ابو حيان التوحيدى
د . احمد كمال زكى	٣٦ - ابن المعتز العباسى
د . ماهر حسن قهسى	٣٧ - الزهاوى
د . عائشة عبد الرحمن	٣٨ - ابو العلاء المعرى
د . حسين فوزى النجار	٣٩ - احمد لطفى السيد
د . فوقية حسين	٤٠ - الجوينى امام الحرمين
د . سعيد عبد الفتاح هاشور	٤١ - صلاح الدين الايوبى
محمد عبد الفنى حسن	٤٢ - عبد الله فكرى
د . على حسنى الخربوطلى	٤٣ - عبد الله بن الزبير
انور الجندى	٤٤ - عبد العزيز جاويز
عبد الرؤف مخلوف	٤٥ - ابن رشيد القيروانى
محمود خالد الهجرى	٤٦ - محمد عبد الملك الزيات
محمود فنيح	٤٧ - حنفى ناصف
د . سيدة اسماعيل الكاشف	٤٨ - احمد بن طولون
احمد سعيد الدمرداش	٤٩ - محمود حمدي الفلكى
محمد عبد الفنى حسن	٥٠ - احمد فارس الشدياق
د . على حسنى الخربوطلى	٥١ - المهدي المياهمى

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ - رفاعة الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار ،
٥٤ - زرياب	د . محمود أحمد الخفنى
٥٥ - الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ - ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ - ابن النقيس	د . بول غليونجى
٥٨ - السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ - المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ - المقرئ	محمد عبد الفنى حسن
٦١ - جمال الدين الأقفانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ - الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ - ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ - محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ - محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ - ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ - عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ - موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ - أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ - عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ - على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ - أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ - العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخروبلى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر